الأئمة الاثنا عشر عليهم السلام

الإمام جعفر الصادق عليه السلام

بقلم

الشيخ محمد حسن آل ياسين

الأئمة الاثنا عشر عليهم السلام

الإمام جعفر الصادق عليه السلام

بقلم

الشيخ محمد حسن آل ياسين

سورة الفاتحة

الى ارواح المؤمنين والمؤمنات

والى روح الحاج علي رشيد الفاضل

الإمام جعفر الصادق عليه السلام

www.aljawadain.org

الأئمة الاثنا عشر عليهم السلام

الإمام جعفر الصادق عليه السلام

بقلم

الشيخ محمد حسن آل ياسين

سورة الفاتحة

الى ارواح المؤمنين والمؤمنات

والى روح المرحوم المبرور

الحاج علي رشيد الفاضل

المطبعة العربية - بيروت
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد المصطفى المختار خاتم النبيين وسيد المرسلين، وآله الصفوة الميامين الطيبين الطاهرين.

وبعد:

فليس من التكرار المملول أن أُعيد ما سلف مني ذكره فيما قدَّمتُ به الكتب السابقة المعنية بالأئمة المنتجبين؛ من كون الحديث عنهم أجل الحديث، وكون سيرتهم العطرة المضمَّخة بالأريج أعذب السِّير، وكون حياتهم المعطاء الدفاقة بالخير أسمى ماعرفت البشرية من حياة، فيما تنشر من بركة وتمنح من حب وتضفي من ألق ونور وتوهج.

ولقد قلت سابقاً: ان نفسي كانت تسوقني - منذ حين - الى كتابة هذه الأوراق المبنية على الضغط والايجاز؛ والمقتصرة على المختصر المفيد، في تسجيل لمحاتٍ من تاريخ اولئك القادة العظام، أبواب علم النبوة، وخزان كنوز الوحي؛ وحاملي أسرار التنزيل، لأن تاريخهم المشع المتلألئ، هو تاريخ الاسلام الأصيل، بما حمل من هدى وإشراق وعطاء؛ وبما أهم من عزم وتضحية وفداء.

وأوضحتُ حينذاك: أني عشتُ ازاء هذه الرغبة النفسية الملحّة بين عاملَيْ أخذٍ وردٍّ: يستقي أحدُهما حَذَره من شموخ هذا الموضوع ومن التضاؤل أمامه خوفاً وفرقاً من الاقدام على ولوج هذا الخضم البعيد الغور. ويستمد ثانيهما عَزْمَه من الاحساس بأن هناك جوانب في تاريخ الأئمة وسيرتهم وتراثهم الفكري؛ لم تبحث على النحو الذي يجب أن يكون عليه البحث في العرض والسرد والتحليل؛ بعيداً عما لاضرورة له من التفصيل والتطويل، بل ان هناك من تلك الجوانب ما لم يُسلّط عليه الضوء الكاشف بالقدر الذي ينبغي له من جلاء وتبيين، ولم تُجْمَع أطرافه المهمة في دراسات موجزة مبسّطة تغني القارىء المعاصر - وهو العجِلُ الضيّق الوقت - عن الرجوع الى الكتب الضخمة والموسوعات الكبرى التي لم تلتزم في معظمها بمناهج التبويب والتنظيم، ولم تخضع في الغالب لقواعد التدقيق والتمحيص.

ولم يكن لديّ مناص من الاستسلام أخيراً لعنف الرغبة التي عاشت في حنايا نفسي حيناً غير قصير من الزمن، فاقتحمتُ الميدان وكلي أمل بأن يحالفني التوفيق في إنجاز حلقات هذه «السلسلة» على النحو الذي رجوتُه لها: قياماً بواجب الوفاء بأبرز أطراف البحث ونقاطه الرئيسة، والتزاماً بالأمانة والموضوعية في النقل والنقد والمحاكمة واستنباط النتائج.

وهكذا بدأت العمل - متوكلاً على الله - في الاعداد لهذه الدراسات.

وعلى هدى ذلك المنهج حررتُ هذه الصفحات.

والله المسؤول أن يكتب لي في هذا المسعى بعض النجاح في إفادة القراء ونفعهم؛ وبعض الأجر والثواب في كتاب حسناته وميزان نفحاته، وهو - تعالى - ولي ذلك كله من قبل ومن بعد.

●●●

وستُعنى هذه الرسالة بفصولها الثلاثة بعرضٍ موجز لسيرة الامام السادس من أئمة الحق الأصفياء المطهرين، الصادق القول ابن الصادقين، والناطق بالصواب سليل الناطقين، مشعل الهداية، وقطب الولاية والدراية، جعفر بن محمد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

وقد عقدتُ الفصل الأول منها على تاريخ الامام (بين ولادته وإمامته)، متحدثاً فيه عن حياته الشخصية وشؤونه الذاتية؛ ومنها الولادة والنشأة؛ والأزواج والأولاد، مع الاشارة الى بعض ما عانى في أيام الصبا والشباب من جور حكام عصره؛ وآلام دهره الحافل بالمآسي والأرزاء.

وعقدتُ الفصل الثاني على تاريخ الامام (بين إمامته وشهادته) شارحاً فيه الأدلة على إمامته، كما أرشدتُ اليه النصوص النبوية المتفق على صحتها؛ مما يبحث عنه طالب

النص الذي يعتقد أن لا إمامة بدونه، وكما تواترت به الشهادات على أهليته وكفايته للامامة؛ وعلى انفراده بالمواصفات المطلوبة التي اتفق جمهور المسلمين على وجوب اجتماعها في شخص الامام إذ لا إمامة بغير اجتماع تلك الصفات، مع بيانٍ مقتضب لمجمل مسيرِ من تقمّص الخلافة الشرعية والولاية العامة في عصره من امويين وعباسيين، لغرض التنبيه والمقارنة والتذكير بحقائق الامور.

ثم وقفتُ متمهلاً عندما رواه المؤرخون من علاقاته بحكام تلك السنين؛ وروابطه بمدّعي الامامة الدينية والنيابة النبوية؛ في سلبها وايجابها؛ وتوترها ومهادنتها؛ وشدّها وإرخائها، حتى بلغت نهايتها أخيراً بوفاة الامام وما قيل في سببها من دسّ السم اليه والتآمر عليه.

وعقدتُ الفصل الثالث على (تراث الامامة) الذي ورثته الامة عن الامام، فاستعرضتُ فيه ما أجمعت عليه كلمة السلف والخلف؛ من علماء الدين؛ وأئمة المذاهب الفقهية؛ وكتّاب الحديث والتراجم والتاريخ؛ في القديم والحديث، من كونه المعلّم الأكبر لرجال الفكر والعلم في عصره؛ والاستاذ الأول الذي انتشرت عنه المعارف ونُقلت منه العلوم. وأوردتُ خلال ذلك أمثلة مما أثر عنه في معاني القرآن وأحكام الشريعة وفروع الفقه واصول الاستنباط. وما تناقل عنه المحدّثون من مناظرات

الفلاسفة والمتكلمين في مسائل هذين العلمين، وما أسند الباحثون اليه في شتى ميادين الفكر وحقول الثقافة. ووقفتُ وقفة خاصة عندما رُوي عنه في العلوم الطبيعية والتطبيقية كالطب والكيمياء والفلك وغيرها؛ للتأكد من ريادته في ذلك كله، وعندما نُسب اليه من كتب ومؤلفات لمعرفة مايصح منها وما لايصح وما يثبت منها ومالم يثبت.

وفي الختام ـ كما في البدء ـ اكرر حمد الله تعالى على آلائه ونعمائه، وأبتهل اليه عز وجل أن يسدّد الخطا على الطريق، ويمد بمزيد من التوفيق، انه خير مسدّد وموفّق ومعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

العراق ـ بغداد/ الكاظمية:

محمد حسن آل ياسين

جعفر بن محمد «الصادق»
بين
ولادته و إمامته

«انه الولد الذي جمع المجد من أطرافه، وحوى السؤدد من نواحيه، وضمّ بُرْدَيْه على أسمى ما عرفت البشرية من مواريث الأنبياء وهبات الوحي، مادة ومعنى، وجسماً وروحاً، وفكراً وعطاء».

«ونشأ في ذلك البيت الذي أذن الله أن يُرفع، وشاء ربُّ العزة له أن يتولى أمر تعليمه أبوه الامام الذي بقر العلم بقراً كما بشر بذلك رسول الله (ص). وأن يلتقط هذا الفتى ما أمكنه الالتقاط من درر بحر جده زين العابدين (ع)، فحظي من مجموع ذلك بما جعله منذ ريعان شبابه مطمح الأنظار ومهوى الأفئدة ووجهة الآمال وملتقى التطلعات».

في صباح يوم طافح بالسعادة والبهجة؛ ومع ابتسامة فجره المتلألىء المندّى؛ واشراقة شمسه الزهراء الدافئة[1]، وكان ـ فيما رُوي ـ يوم الجمعة[2] أو الاثنين[3]، السابع عشر من شهر ربيع الأول في أرجح الروايات[4]، لسنة ٨٣هـ[5]؛ وقيل: سنة

---

(١) ورد النص على كون الولادة عند طلوع الفجر أو الشمس في المناقب: ٢/٣٤٩ ووفيات الأعيان: ١/٢٩١ والأئمة الاثنا عشر: ٨٥ وبحار الأنوار: ٤٧/٤ و٩٨/١٩٤.

(٢) المناقب: ٢/٣٤٩ وبحار الأنوار: ٤٧/٤ و٩٨/١٩٤.

(٣) المناقب: ٢/٣٤٩ وبحار الأنوار: ٤٧/٤ و٩٨/١٩٤ وجواهر الكلام: ٢٠/٨٨ وعمدة الزائر: ٤٩ و٣٠٥.

(٤) المصادر المذكورة في الهامش المتقدم. وشذت رواية الولادة في ثامن شهر رمضان في وفيات الأعيان: ١/٢٩١، وفي غرة شهر رجب في عمدة الزائر: ٣٠٥.

(٥) الكافي: ١/٤٧٢ والارشاد: ٢٨٩ وتهذيب الطوسي: ٦/٧٨ والمناقب: ٢/٣٤٩ وكفاية الطالب: ٣٠٧ ووفيات الأعيان: ١/٢٩١ ومطالب السؤول: ٢/٥٥ والفصول المهمة: ٢٠٥ والأئمة الاثنا عشر: ٨٥ وبحار الأنوار: ٤٧/١ و٤ و٩٨/١٩٤ وجواهر الكلام: ٢٠/٨٨ وعمدة الزائر: ٤٩ و٣٠٥ ونور الأبصار: ١٣٣.

ويؤيد هذه الرواية ـ بعد الاتفاق على تاريخ وفاته ـ ما ورد من النصّ على كونه حين وفاته ابن خمس وستين سنة، كما في عدد من المصادر المتقدمة وغيرها ومنها مروج الذهب: ٣/٢١٢.

ثمانين[6]، أطلّ على الدنيا جعفر بن محمد بن علي (ع) فرع شجرة النبوة والامامة، وسَبل أهل بيت الوحي والتنزيل، فعجّت دور آل محمدٍ (ص) وعليّ (ع) بالبشائر والأفراح، وانتشرت أصداء البشرى حتى شملتْ جميع أندية المدينة المنورة وسائر أحيائها الفسيحة وأرجائها الممتدة الواسعة.

انه الوليد الذي جمع المجد من أطرافه؛ وحوى السؤدد من نواحيه، وضمّ بُرديْه على أسمى ما عرفت البشرية من مواريث الأنبياء وهبات السماء، مادة ومعنى؛ وجسماً وروحاً؛ وهيئة ومحتوى؛ وفكراً وعطاء.

انه ابن ذلك الامام الذي لقّبه جده الرسول الأعظم (ص) بالباقر لأنه يبقر العلم بقراً، وحفيد الامام الذي أجمع المسلمون على تلقيبه زين العابدين، وابن حفيد مَنْ ورد النصُّ النبوي على كونه أحد سيدي شباب الجنة وخامس أهل الكساء المطهَّرين، وكان جدُّه الثالث مَنْ خصَّه رسول الله (ص) بأمر الله تعالى

(٦) وفيات الأعيان: ١/٢٩١ وتاريخ أبي الفدا: ٢/٥ وتذكرة الحفاظ: ١/١٦٦ وسير أعلام النبلاء: ٦/٢٥٥ و٢٦٩ ومطالب السؤول: ٢/٥٥ والنجوم الزاهرة: ٢/٨ وسر السلسلة العلوية: ٣٤ والفصول المهمة: ٢٠٥ ومرآة الجنان: ١/٣٠٤ وعمدة الطالب: ١٨٤ وتهذيب التهذيب: ٢/١٠٤ والأئمة الاثنا عشر: ٨٥ وشذرات الذهب: ١/٢٢٠ وبحار الأنوار: ١/٤٧ وزهرة المقول: ٥٨ وينابيع المودة: ٣٨٠ ونور الأبصار: ١٣٣ وهدية العارفين: ١/٢٥١ والأعلام: ٢/١٢١ ومعجم المؤلفين: ٣/١٤٥.

وشذت رواية بحار الأنوار: ٤٧/٤ في ولادته سنة ست وثمانين.

بولاية الأمر وقيادة الامة من بعده، وجعله باب مدينة العلم الالهي وأمير المؤمنين[7].

امّا أُمّه فهي السيدة فاطمة الشهيرة بكنيتها «أُمّ فروة» بنت القاسم بن محمد بن الخليفة أبي بكر، وأُمّها السيدة أسماء بنت عبدالرحمن بن أبي بكر[8]، ولذلك كان الامام الصادق (ع) يقول: «ولدني أبو بكر مرتين»[9].

وكانت السيدة أُمّ فروة من النساء الجليلات اللواتي لا ينكر فضلهن ورفعة مقامهن، وُروي عن ابنها (ع) قوله وهو يتحدث عنها: «كانت أُمّي ممن آمنت واتّقت وأحسنت، والله يحب

(٧) يراجع في الأئمة المذكورين كتبنا المعنيّة بتواريخهم: الامام علي بن أبي طالب ـ سيرة وتاريخ ـ، والامام الحسين بن علي والامام علي بن الحسين والامام محمد بن علي الباقر (ع)، وكلها مطبوعة ولله الحمد.

(٨) نسب قريش: ٦٣ وطبقات خليفة: ٢/٦٧٣ وتاريخ اليعقوبي: ٣/١١٥ وطبقات ابن سعد: ٥/١٣٩ وذيل المذيل: ٦٥٣ والكافي: ١/٤٧٢ والارشاد: ٢٨٩ وتهذيب الطوسي: ٦/٧٨ وسر السلسلة العلوية: ٣٣ ـ ٣٤ والمناقب: ٢/٣٤٩ ووفيات الأعيان: ١/٢٩١ ومنهاج السنة: ٢/١٢٣ وصفة الصفوة: ٢/٩٤ والعبر: ١/١٦٠ وتذكرة الحفاظ: ١/١٦٦ وسير أعلام النبلاء: ٦/٢٥٥ وتاريخ أبي الفدا: ٢/٥ والنجوم الزاهرة: ٢/٨ وتذكرة الخواص: ٣٥١ ومطالب السؤول: ٢/٥٥ وتهذيب التهذيب: ٢/١٠٣ ومرآة الجنان: ١/٣٠٤ والأئمة الاثنا عشر: ٨٥ والصواعق المحرقة: ١٢٠ وشذرات الذهب: ١/٢٢٠ وبحار الأنوار: ١/٤٧ وزهرة المقول: ٥٨ وجواهر الكلام: ٢٠/٨٨.

(٩) تذكرة الحفاظ: ١/١٦٦ وسير أعلام النبلاء: ٦/٢٥٥ وتهذيب التهذيب: ٢/١٠٣ وعمدة الطالب: ١٨٤ ونور الأبصار: ١٣٣.

المحسنين»[10].

واشتهر هذا الفتى منذ يفاعة صباه بكنيته الاولى «أبي عبدالله»[11]، ثم كُني على لسان بعضهم بـ«أبي اسماعيل»[12] لما وُلد له ولده الأكبر اسماعيل.

كما عُرف بين الناس بعدد من الألقاب كـ«الصابر» و«الفاضل» و«الطاهر» و«القائم» و«الكاظم» و«المنجي»[13].

ولكنَّ لقبه الأشهر الذي شاع وذاع بين المسلمين منذ أيام حياته وبقي في شيوعه خالداً حتى يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها؛ وحتى صار البديل الواضح عن اسمه بل اسمه الثاني المتداول؛ هو «الصادق»[14]. وقال المؤرخون: إنه «انما لُقِّبَ بالصادق

(١٠) الكافي: ١/٤٧٢ وبحار الأنوار: ٤٧/٧.

(١١) طبقات خليفة: ٢/٦٧٣ والمعارف: ٢١٥ وذيل المذيّل: ٦٥٣ ومروج الذهب: ٣/٢١٢ والكافي: ١/٤٧٢ وتهذيب الطوسي: ٦/٧٨ وسائر ما تلاه من المصادر المذكورة في الهامش ذي الرقم (٨).

(١٢) المناقب: ٢/٣٥٠ ومطالب السؤول: ٢/٥٥ وتذكرة الخواص: ٣٥١ والفصول المهمة: ٢٠٥ وبحار الأنوار: ٤٧/٩ ونور الأبصار: ١٣٣.

(١٣) النجوم الزاهرة: ٢/٨ وجميع المصادر المذكورة في الهامش المتقدم (١٢).

(١٤) التبيين: ١١٠ وتهذيب الطوسي: ٦/٧٨ والمناقب: ٢/٣٥٠ وكامل ابن الأثير: ٥/٢٧ وكفاية الطالب: ٣٠٧ ووفيات الأعيان: ١/٢٩١ ومنهاج السنة: ٢/١٢٣ وتاريخ أبي الفدا: ٢/٥ والعبر: ١/١٦٠ وتذكرة الحفاظ: ١/١٦٦ وسير أعلام النبلاء: ٦/٢٥٥ والبداية والنهاية: ١٠/١٠٥ وتذكرة الخواص: ٣٥١ ومطالب السؤول: ٢/٥٥ وتهذيب التهذيب: ٢/١٠٣ ومرآة الجنان: ١/٣٠٤ والنجوم الزاهرة: ٢/٨ وعمدة الطالب: ١٨٤ والفصول المهمة: ٢٠٥

لصدقه في مقالته»؛ و«لأنه لم يُعرَف عنه الكذب قط»[15].

★★★

نشأ هذا الصبي المبارك في ذلك البيت الذي أذن اللهُ ان يُرفَع ويُذكَر فيه اسمه، يستروح في أرجائه عبير النبوة وأريجها الفوّاح، ويتطلع في فضائه الى نور الرسالة وإشعاعها الممتدّ عبر السنين، ويملأ صدره انشراحاً بما ضمّنته دارة آل محمد من تألّق الهدي الالهي الخالد؛ وهمهمة الوحي السماوي المتردّد الأصداء.

وحباه الله تعالى من حُسن الخَلْق وبديع التصوير وروعة الملامح والسمات؛ مازاده جمالاً وكمالاً وهيبة وتلألؤ شباب، فقد كان - كما وصفه مؤرّخوه - رَبْعَ القامة، أزهر الوجه، أشمَّ الأنف، رقيق البشرة، آدم اللون، حالك الشَّعر جَعْدَه، على خدِّه خال أسود[16].

والأئمة الاثنا عشر: ٨٥ والصواعق المحرقة: ١٢٠ وشذرات الذهب: ١/٢٢٠ وبحار الأنوار: ٤٧/٩ وتاريخ الخميس: ٢/٣٢٥ وجواهر الكلام: ٢٠/٨٨ ونور الأبصار: ١٣٣ وهدية العارفين: ١/٢٥١ ودائرة المعارف الاسلامية: ٦/٤٧٣.

(١٥) وفيات الأعيان: ١/٢٩١ وتاريخ أبي الفدا: ٢/٥ ومرآة الجنان: ١/٣٠٤ وحياة الحيوان: ٢/١٠٣ والأئمة الاثنا عشر: ٨٥ وعقيدة الشيعة: ١٣٨ والأعلام: ٢/١٢١.

(١٦) المناقب: ٢/٣٥٠ والفصول المهمة: ٢٠٥ وبحار الأنوار: ٤٧/٩ ونور الأبصار: ١٣٣.

وشاء ربُّ العزّة لجعفر بن محمد خلال نشأته السعيدة أن يتولّى شأن تعليمه وتثقيفه «أبوه الامام محمد الباقر، وهو أعلم أهل زمانه بالقرآن وتفسيره؛ وبالحديث والفقه»[17]، وكان ذلك «ذا أثر بالغ في حياة الامام» كما يقول الشيخ أبو زهرة، فقد نهل الصادق «من عذب نميره، واقتبس الكثير من نوره»[18]، كما التقط هذا الفتى ما أمكنه الزمن التقاطه من درر بحر جدّه علي بن الحسين (ع) في شتى أفانين العلم والمعرفة، فحظي من مجموع ذلك بما جعله منذ ريعان شبابه مطمح الأنظار؛ ومهوى الأفئدة؛ ووجهة الآمال؛ وملتقى التطلّعات.

وتزوج في مطلع رجولته الصاعدة السيدةَ فاطمة بنت الحسين ابن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع)[19]، فولدت له ولده الأكبر اسماعيل؛ وقد توفي شاباً في حياة أبيه[20]، وعيد الله الشهير

(١٧) شخصيات اسلامية: ٣٩ ـ ٤٠.

(١٨) الامام الصادق: ٢٥.

(١٩) نسب قريش: ٦٣ وذيل المذيل: ٦٥٢ والارشاد: ٣٠٣ وسر السلسلة العلوية: ٣٤ والمناقب: ٢/٣٤٩ وتذكرة الخواص: ٣٥٦ وبحار الأنوار: ٤٧/٢٥٥ وينابيع المودة: ٣٨٢.

(٢٠) نسب قريش: ٦٣ وتاريخ اليعقوبي: ٣/١١٧ وذيل المذيل: ٦٥٢ والارشاد: ٣٠٣ والمناقب: ٢/٣٤٩ وتذكرة الخواص: ٣٥٦ وسير أعلام النبلاء: ٦/٢٧٠ وعمدة الطالب: ٢٢٢ وزهرة المقول: ٥٨ وبحار الأنوار: ٤٧/٢٥٥ وينابيع المودة: ٣٨٢ ونور الأبصار: ١٣٥.

بالأفطح[21]؛ وقد مات بعد وفاة أبيه بقليل[22]، وأمّ فروة[23] ـ ولعلها كنية ابنته أسماء كما في بعض المصادر[24]، وإنْ ذُكرتْ أسماءُ مع ام فروة وكأنها اثنتان في مصادر اخرى[25].

كما وُلِدَ له من السيدة حميدة[26] كلٌ من موسى الكاظم (ع) ـ وهو الامام من بعده ـ، واسحاق، ومحمد[27]. كذلك وُلِد له من نساء أُخريات كلٌ من العباس[28]، ويحيى[29] وعليّ[30] وفاطمة

(٢١) نسب قريش: ٦٣ وتاريخ اليعقوبي: ٣/١١٧ وذيل المذيل: ٦٥٢ والارشاد: ٣٠٣ والمناقب: ٢/٣٤٩ وتذكرة الخواص: ٣٥٦ وبحار الأنوار: ٤٧/٢٥٥ ونور الأبصار: ١٣٥.

(٢٢) ينابيع المودة: ٣٨٢.

(٢٣) نسب قريش: ٦٣ وذيل المذيل: ٦٥٢ والارشاد: ٣٠٣ والمناقب: ٢/٣٤٩ وتذكرة الخواص: ٣٥٦ ونور الأبصار: ١٣٥.

(٢٤) المناقب: ٢/٣٤٩.

(٢٥) نسب قريش: ٦٣ وذيل المذيل: ٦٥٢ والارشاد: ٣٠٤ والمناقب: ٢/٣٤٩ وبحار الأنوار: ٤٧/٢٥٥.

(٢٦) سر السلسلة العلوية: ٤٤ والمناقب: ٢/٣٤٩ وبحار الأنوار: ٤٧/٢٥٥.

(٢٧) نسب قريش: ٦٣ وذيل المذيل: ٦٥٢ والارشاد: ٣٠٤ والمناقب: ٢/٣٤٩ وسر السلسلة العلوية: ٤٤ وتذكرة الخواص: ٣٥٦ وعمدة الطالب: ٢٣٥ و٢٣٩ وزهرة المقول: ٥٨ وبحار الأنوار: ٤٧/٢٥٥ ونور الأبصار: ١٣٥.

(٢٨) نسب قريش: ٦٣ وتاريخ اليعقوبي: ٣/١١٧ وذيل المذيل: ٦٥٢ والارشاد: ٣٠٤ والمناقب: ٢/٣٤٩ وسر السلسلة العلوية: ٥٠ وتذكرة الخواص: ٣٥٧ وبحار الأنوار: ٤٧/٢٥٥.

(٢٩) ذيل المذيل: ٦٥٢ وتذكرة الخواص: ٣٥٧.

(٣٠) تاريخ اليعقوبي: ٣/١١٧ والارشاد: ٣٠٤ وسر السلسلة العلوية: ٤٩ والمناقب: ٢/٣٤٩ وتذكرة الخواص: ٣٥٦ وعمدة الطالب: ٢٣١ و٢٣٢ وزهرة المقول: ٥٨ وبحار الأنوار: ٤٧/٢٥٥ ونور الأبصار: ١٣٥. ونصّ في العمدة على كونه «أصغر ولد أبيه».

(الكبرى)[31]، وفاطمة (الصغرى)[32]، وبُرَيْهَة ـ في رواية بعضهم ـ[33].

وخلافُ المؤرخين في تحديد عدد أولاده ماثلٌ في المصادر، ولعل الأرجح أنهم عشرة[34]، ولكن المتفق عليه أنه أعقب من خمسة رجال: موسى واسماعيل وعلي ومحمد واسحاق[35].

★★★

عاصر الامام في مجمل أيامه التي عاشها بين ولادته وإمامته جميع أحداث عصره المثقل بالكوارث؛ وسائر آلام زمنه الطافح بالأحزان، وأطلَّ من طريق ما رأى وشاهد ـ إطلالة العارف الخبير ـ على ما عاناه سلفه الطيب الطاهر من قبل؛ على أيدي سلاطين تلك السنين؛ من امويين ومرتزقة ومأجورين، وعلى ما سبق ذلك من انحراف المسيرة الاسلامية عن خطّها الأصيل؛

(٣١) نسب قريش: ٦٣ وذيل المذيل: ٦٥٢ وتذكرة الخواص: ٣٥٧.

(٣٢) نسب قريش: ٦٣ وذيل المذيل: ٦٥٢ وتذكرة الخواص: ٣٥٧ وبحار الأنوار: ٤٧/٢٤١

ووردت (فاطمة) واحدة بلا تلقيب بـ(كبرى) أو (صغرى) في الارشاد: ٣٠٤ والمناقب: ٢/٣٤٩ وبحار الأنوار: ٤٧/٢٥٥.

(٣٣) نسب قريش: ٦٣. ولم يذكرها غيره.

(٣٤) ورد النص على هذا العدد في الارشاد: ٣٠٣ والمناقب: ٢/٣٤٩ وكفاية الطالب: ٣٠٩ وعقيدة الشيعة: ١٣٨.

(٣٥) عمدة الطالب: ١٨٤ وينابيع المودة: ٣٨٢.

وانتقالها من منهج القِيَم والمُثُل والعدل والدين الحق الى عالم الملك والدنيا والظلم والجور، حيث طغت الأطماع والمصالح الذاتية على موازين الكتاب والسنّة المحمدية، وهيمنت العقلية العشائرية والأحقاد الجاهلية الموروثة على نظام الحكم وادارة الدولة وقيادة المجتمع.

وكان من أوائل ما عاصره الامام خلال تلك السنوات ـ وهو بعد في مقتبل العمر ـ موقف الطاغية الاموي الوليد بن عبدالملك من جدّه الامام علي بن الحسين ـ ع ـ، وكان الوليد المذكور ـ كما ذكر مؤرخوه ـ ظلوماً جباراً عنيداً؛ لا يتورّع عن اتيان المنكر، ولا يردعه عن الشر والجور أي رادعٍ من خلق أو دين أو كياسة أو سياسة، ولهذا توجهت أصابع الاتهام اليه بدسّه السمَّ للامام زين العابدين ـ ع ـ فقضى نحبه به[36].

كما كان مما عاصر الامام الصادق في تلك المدة معاملة حكام ذلك العهد لأبيه، مع ما يشاهد بأمّ عينيه من ابتعاد أبيه عن عالم السياسة الدنيوية، وامتناعه من إثارة المشاكل والقلاقل ضد الدولة، لأن أباه كان يرى أن تلك الظروف ليست ظروف خروج وثورة؛ بالمعنى الشرعي للثورة التي يفترض أن يكون

(٣٦) المناقب: ٢/٢٦٩ والفصول المهمة: ١٩٠ ـ ١٩١ والصواعق المحرقة: ١٢٠ وبحار الأنوار: ٤٦/١٥٣ وعمدة الزائر: ٣٠٣. ويراجع في تفاصيل ذلك كتابنا: «الامام علي بن الحسين ـ ع ـ».

هدفها قلب النظام وتصحيح المسار، ومن هنا انحصر اهتمامه كله بالتعليم والتفقيه والتوجيه؛ وبالتربية الجماهيرية الصالحة على استقامة الخلق وحسن السلوك وطيب التعامل؛ كما أسلفنا ذكره بالتفصيل في كتابنا «الامام محمد بن علي الباقر ـ ع ـ». ولكن ذلك التوجه القائم على المهادنة السياسية ـ ولم تكن تعني بطبيعة الحال الامتناع عن العمل الثقافي البناء والنشاط التربوي الهادف ـ لم يرض غرور السلطة المتجبّرة؛ ولم يرقْ لصنائعها المأجورة، فكان ما كان من المضايقات والمكايدات والتوتر المستمر بينها وبين الامام الباقر ـ ع ـ.

وجاء في الرواية عن الامام الصادق ـ ع ـ؛ وكان قد قصد مكة المكرمة بمعيّة أبيه حاجّين كالمعتاد، وحجّ هشام بن عبدالملك في تلك السنة أيضاً: أن جعفراً ـ ع ـ قال مخاطباً جمعاً من المسلمين في المسجد الحرام:

«الحمد لله الذي بعث محمداً بالحق نبياً، وأكرمنا به، فنحن صفوة الله على خلقه؛ وخيرته من عباده؛ وخلفاؤه. فالسعيد من اتّبَعَنا، والشقي مَنْ عادانا وخالفَنَا».

فسمع مسلمة بن عبدالملك هذا الكلام فأخبر أخاه بما سمع، ويقول الامام الصادق: انه «لم يعرض لنا حتى انصرف الى دمشق وانصرفنا الى المدينة، فأنفذ بريداً الى عامل المدينة بإشخاص أبي وإشخاصي معه، فأشْخِصْنا. فلما وردنا مدينة دمشق حَجَبَنا

ثلاثاً ثم أذن لنا في اليوم الرابع»[٣٧]، ودار بين الامام الباقر والخليفة ما دار في تلك المقابلات من أحاديث ومحاورات.

ثم كان خاتمة ذلك العهد الأسود مع أبيه، بعد استدعائه الى الشام تارة؛ وإخراجه اليها بالقوة تارة؛ وسجنه هناك في بعض الأحيان، دسُّ السم للامام الباقر ـ ع ـ[٣٨] ووفاته شهيداً بيد الجبن والغدر والحقد الدفين.

★★★

وهكذا انتهت تلك السنون التي تجاوزت الثلاثين بين ولادته ووفاة أبيه، وهو يعيش الآلام الخاصة بأهل بيته؛ والآلام الاخرى التي شملت مجتمع المؤمنين عامة، ليستقبل حقبة ثالثة من الزمن؛ كان فيها ما يفوق جميع التوقعات من ألوان المآسي والنوائب؛ وضروب الأحزان والمصائب، وشدائد المفاجآت والطوارىء.

---

(٣٧) بحار الأنوار: ٤٦/٣٠٦ ـ ٣٠٩.

(٣٨) المناقب: ٢/٢٩٥ والفصول المهمة: ٢٠٣ والصواعق المحرقة: ١٢٠ وبحار الأنوار: ٤٦/٢١٦ ـ ٢١٧ وينابيع المودة: ٣٦٠ ونور الأبصار: ١٣٢ وإسعاف الراغبين: ٢١٤ وعمدة الزائر: ٣٠٤.

الإمام الصادق
بين
إمامته وشهادته

«وكان هو الامام الأوحد للمسلمين في ذلك العصر باجماع الكلمة، لأنه المنصوص عليه بالامامة من قبل أبيه الباقر - وهو الامام المسلَّم الامامة كما تقدم - ، والمنظور اليه بالذات من بين رجال عصره في النصوص النبوية المأثورة في تعيين الأئمة من أهل البيت، والجامع لكل شروط الامامة وصفاتها المطلوب اجتماعها فقهاً وشرعاً في شخص المرشَّح لذلك».

في عام ١١٤ هـ اختار الله الى جواره الامام محمد بن علي الباقر (ع) ورفع روحه اليه، ففقد المسلمون إمامهم الشرعي الذي تضافرت النصوص النبوية على تعيينه؛ واجتمعت فيه الصفات التي لم تجتمع في غيره من مدّعي الامامة في عصره[1].

وكان من الطبيعي أن تتطلّع أنظار المسلمين من كل حدب وصوب الى مَنْ يحمل الراية بعده ويسدُّ الثلمة، ويكون الملاذ لطلّاب الهدى؛ والموئل للباحثين عن الحق والمتمسكين بعروة الدين الوثقى ونظام الله الأمثل؛ فلم يكن أمامهم غير جعفر بن محمد؛ منصوصاً عليه بالإمامة من قبل أبيه الباقر ـ وهو الامام المسلَّم الامامة كما تقدّم ـ، ومنظوراً اليه بالذات في النصوص المأثورة عن النبي (ص) في حقّ أهل بيته (ع)، ومجمعاً لكل شروط الامامة وصفاتها المطلوب اجتماعها فقهاً وشرعاً في شخص الامام المرشّح لذلك.

أما كونه خليفة أبيه ووصيّه الذي نصّ عليه بالامامة من بعده، فقد تعدّدت روايته على ألسن المحدّثين والمؤرخين،

---

(١) يراجع في ذلك كتابنا الامام محمد بن علي الباقر: ٣٢ ـ ٤٥.

ونقلتها المصادر المعنيّة الموثوقة لدى المسلمين، وحسبنا من ذلك قول الشيخ المفيد وابن الصباغ المالكي: انه كان «من بين اخوته خليفة أبيه محمد بن علي ـ ع ـ ووصيُّه القائم بالامامة من بعده»[2]، وقول الحافظ ابن حجر الهيتمي: كان خليفة أبيه ووصيُّه[3]، وقول الطبرسي والمجلسي: «وصىّ اليه أبوه أبو جعفر ـ ع ـ وصية ظاهرة، ونصَّ عليه بالامامة نصّاً جلياً»[4]، وقول ابن شهر اشوب ملخّصاً مجموع الروايات: «وثبت من الطريقين المختلفين أنه منصوص عليه»[5].

وأما كونه المنظور اليه في النصوص النبوية على اختلاف ألفاظها فيكفينا منها قوله ـ ص ـ: «الأئمة من قريش» وكونهم اثني عشر[6]؛ وفي لفظ الطبراني في احدى رواياته: «اثنا عشر قيّماً

(٢) الارشاد: ٢٨٨ والفصول المهمة: ٢٠٤. ويحد القارىء في الكافي: ١/٣٠٦ ـ ٣٠٧ والارشاد بعض النصوص المروية عن الامام الباقر ـ ع ـ في هذا الشأن.
(٣) الصواعق المحرقة: ١٢٠.
(٤) الاحتجاج: ٢٠٣ وبحار الأنوار: ٤٧/١٢ ـ ١٥ و٢٦٤ و٢٦٦.
(٥) المناقب: ٢/٣٠٠.
(٦) صحيح البخاري: ٩/٧٨ و١٠١ وصحيح مسلم: ٦/٣ و٤ وسنن الترمذي: ٤/٥٠١ وسنن أبي داود: ٢/٤٢١ ومسند أحمد بن حنبل: ٢/١٢٨ و٣/١٢٩ و١٨٣ و٤/٤٢١ و٥/٨٦ ـ ١٠٨ ومواضع كثيرة في معجم الطبراني الكبير: ٢/٢١٤ ـ ٢٨٦. وقال ابن حزم في الفصل: ٤/٨٩ «هذه رواية جاءت مجيء التواتر»، وقال ابن حجر الهيتمي في الصواعق المحرقة: ٦ «حديث صحيح ورد من طرق عن نحو أربعين صحابياً».

من قريش لايضرهم عداوة مَنْ عاداهم»[7]، وقوله ـ ص ـ في حديث الثقلين: «اني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي؛ أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله... وعترتي أهل بيتي»[8]، وقوله ـ ص ـ: «أنا سيد النبيين، وعلي سيد الوصيين، وان أوصيائي بعدي اثنا عشر»[9]، وقوله ـ ص ـ وقد وضع سبطه الحسين على فخذه: «أنت إمام ابن إمام، وأنت حجة ابن حجة، وأنت أبو حجج تسعة تاسعهم قائمهم»[10]، الى غير ذلك

(٧) المعجم الكبير: ٢/٢٨٦.
(٨) صحيح مسلم: ٧/١٢٢ وسنن الترمذي: ٥/٦٦٢ و٦٦٣ ومسند أحمد: ٣/١٤ و١٧ و٢٦ و٥٩ و٤/٣٦٧ و٥/١٨٢ و١٨٩ وحلية الأولياء: ١/٣٥٥. وذكر ابن حجر الهيتمي في الصواعق المحرقة: ٨٩ ـ ٩٠ رواية هذا الحديث عن نيف وعشرين صحابياً.
ويرى الشيخ محمد أبو زهرة: ان حديث الثقلين «لايدل على إمامة السياسة، وانه أدلّ على امامة الفقه والعلم... ولاتلازم بين امامة الفقه وامامة السياسة»... (الامام الصادق: ١٩٩).
وفي هذا الكلام مما يثير العجب ما فيه، لأن السياسة إن لم يشترط فيها العلم والفقه والدين فهي ليست سلطة دينية وليست خلافة عن رسول الله (ص) وليست إمامة وولاية بالمعنى الاسلامي الذي تعنيه النصوص، وانما هي سلطان دنيوي محض ينطبق عليه مايتطبق على سلطان الروم والفرس والأحباش، فلا تشترط له البيعة، ولا يعدُّ الخروج عليه نقضاً لأحكام الاسلام ولا ارتداداً عن الدين كما زعم الزاعمون ويزعم المبرقعون.
(٩) ينابيع المودة: ٤٤٧ و٤٨٦.
(١٠) ينابيع المودة: ٢٥٨.

من الروايات المأثورة؛ التي تكفلت بروايتها المصادر المعروفة والموسوعات المشهورة.

وأما كونه الجامع لكل شروط الامامة ومؤهلاتها؛ وفي مقدمة ذلك العلم والعدل؛ والزهد والورع؛ وحصافة الرأي وكريم الخلق، لوجوب أن يكون الامام هو الأفضل في العلم والدين في عصره؛ والمشهود له بالالتزام الكامل بالعمل بالأحكام الشرعية؛ والتقيد المطلق بحرفيّة التكاليف الاسلامية[11]، فسنعرضه فيما يأتي باختصار وايجاز، ليحصحص الحق ويطمئن القلب وتزول غياهب الشك والتردد عن اولئك الذين لم يعترفوا بالنصوص؛ جهلاً بواقع الأمر؛ أو انسياقاً مع الشبهات الطارئة والأقاويل المزعومة.

ولما كان المسلمون في ذلك اليوم مكلّفين بمعرفة إمامهم ـ كما هم مكلّفون بها في كل عصر وزمن حتى قيام الساعة ـ تنفيذاً لقول نبيهم ـ ص ـ الواجب الطاعة والاتّباع: «مَنْ مات بغير إمام مات ميتةً جاهلية» أو «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»[12]، فان من حقّ البحث أن نسأل فنقول:

(١١) الأحكام السلطانية: ٤ وتفسير القرطبي: ١/ ٢٣١ وتفسير البحر المحيط: ١/ ٣٧٩.

(١٢) الحديث بهذا النص أوذاك أو بهذا المضمون في صحيح مسلم: ٦/ ٢٢ ومسند أحمد: ٣/ ٤٤٦ و٤/ ٩٦ والكافي: ١/ ٣٧٦ والمعجم الكبير: ١٩/ ٣٨٨ ومجمع الزوائد: ٥/ ٢١٨ و٢٢٤ و٢٢٥.

مَنْ هو الرجل الذي اجتمعت فيه صفات الامامة في ذلك العصر ـ بعد خلوّ الساحة بوفاة الامام الباقر (ع)؛ وبعد غضّ النظر عن جميع نصوص التعيين الواردة بهذا الخصوص ـ؛ فكان الامام الذي لامناص من وجوده كما أرشدنا الحديث النبوي الشريف؟.

وللجواب الموضوعي على هذا السؤال يجب علينا أن نقف وقفة فحص وبحث وتمحيص، فندرس فيها أحوال المرشّحين للامامة ومدّعيها والمسئولين على مقاليد الأمور الدينية في تلك الحقبة الزمنية المشار اليها، لنحدّد في ضوء ذلك اسم الرجل الذي اجتمعت فيه الصفات؛ وتوفرت فيه المؤهّلات والكفايات؛ من بين مجموع اولئك المدّعين والزاعمين.

جعفر بن محمد الصادق

علمه وفقهه:

قال أبو حنيفة النعمان بن ثابت إمام المذهب المنسوب اليه: «ما رأيتُ أفقه من جعفر بن محمد»[13].

(١٣) المناقب: ٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١ وتذكرة الحفاظ: ١/ ١٦٦ وسير أعلام النبلاء: ٦/ ٢٥٧ والنجوم الزاهرة: ٢/ ٩ وبحار الأنوار: ٤٧/ ٢١٧.

وقال مالك بن أنس إمام المذهب المنسوب اليه: «اختلفتُ اليه زماناً فما كنتُ أراه الاّ على ثلاث خصال: إمّا مُصَلٍّ؛ وإمّا صائم؛ وإمّا يقرأ القرآن. وما رأيتُه يحدِّث الاّ على طهارة»[14].

وقال عمرو بن أبي المقدام: «كنتُ اذا نظرتُ الى جعفر بن محمد علمتُ أنه من سلالة النبيين»[15].

وقال الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور في رسالةٍ له الى محمد النفس الزكية: «ما وُلِدَ منكم بعد وفاة رسول الله ـ ص ـ أفضل من علي بن الحسين... وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن علي... ولا مثل ابنه جعفر»[16].

وقال المنصور أيضاً لما بلغه نبأ وفاة الامام الصادق ـ ع ـ: «ان جعفراً كان ممن قال الله فيه: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾، وكان ممن اصطفى الله، وكان من السابقين بالخيرات»[17].

---

(١٤) تهذيب التهذيب: ٢/١٠٤ ـ ١٠٥ وبحار الأنوار: ٤٧/١٦.
(١٥) حلية الأولياء: ٣/١٩٣ والمناقب: ٢/٣٢٦ وصفة الصفوة: ٢/٩٤ وتذكرة الخواص: ٣٥١ ومنهاج السنة: ٢/١٢٤ وسير أعلام النبلاء: ٦/٢٥٧ وتهذيب التهذيب: ٢/١٠٤ وينابيع المودة: ٣٨٠.
(١٦) تاريخ الطبري: ٧/٥٦٩ ـ ٥٧٠ والعقد الفريد: ٥/٨٢ ـ ٨٣ وكامل ابن الأثير: ٥/٦.
(١٧) تاريخ اليعقوبي: ٣/١١٧.

وقال أبو حاتم عنه: «ثقة لا يُسأل عن مثله»[18]، ورُوي مثل ذلك عن عددٍ من أعلام المحدِّثين[19]، وخُصَّ الذهبي هذه الروايات بقوله: «احتجَّ به سائر الأمّة»[20]، و«حدَّث عنه الأئمة»[21].

وقال ابن واضح اليعقوبي: «كان أفضل الناس وأعلمهم بدين الله، وكان أهل العلم الذين سمعوا منه اذا رووا عنه قالوا: أخبرنا العالم»[22].

وقال عبدالكريم الشهرستاني: «هو ذو علمٍ غزير في الدين؛ وأدبٍ كامل في الحكمة؛ وزهد بالغ في الدنيا؛ وورع تام عن الشهوات»[23].

وجاء في رواية ابن أبي الحديد المعتزلي: «جعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه»[24].

وقال ابن الصباغ المالكي: «مناقبه كثيرة تكاد تفوت عَدَّ

---

(١٨) تهذيب التهذيب: ٢/١٠٤ ونور الأبصار: ١٣٣ واسعاف الراغبين: ٢١٢.
(١٩) تهذيب التهذيب: ٢/١٠٣ ـ ١٠٤.
(٢٠) تذكرة الحفاظ: ١/١٦٧.
(٢١) سير أعلام النبلاء: ٦/٢٥٧.
(٢١) تاريخ اليعقوبي: ٣/١١٥.
(٢٣) الملل والنحل ـ هامش الفصل ـ: ١/٢٢٤.
(٢٤) شرح نهج البلاغة: ١٥/٢٧٤.

الحاسب، ويحار في أنواعها فهم اليقظ الكاتب»[٢٥].

وقال ابن حجر الهيتمي: «نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان»[٢٦].

وقال الشيخ الأزهري المعاصر محمد أبو زهرة: «العلماء الذين عاصروه والذين جاؤا من بعده وصفوه بأنه في الذروة من العلماء، واعترفوا له بالامامة في فقه الدين»[٢٧].

وقال الباحث المعاصر عبدالرحمن الشرقاوي: «أغنى الحياة والفكر بحسن السيرة؛ والعلم الغزير؛ واشراقاته الروحية؛ واستنباطه العقلي. . . . وكان الامام جعفر من بين آل البيت هو الامام الذي تتطلع اليه الأنظار»[٢٨].

زهده وعبادته:

تقدَّم في خلال النصوص السابقة المعنية بعلمه وفقهه شيء من الذكر الضمني لزهده وورعه، وأضاف بعض مترجميه الى ما سلف ما يزيد القارىء علماً ومعرفة بذلك، كقول ابن الجوزي

(٢٥) الفصول المهمة: ٢٠٥.
(٢٦) الصواعق المحرقة: ١٢٠.
(٢٧) الامام الصادق: ٤.
(٢٨) شخصيات اسلامية: ٣٧ ـ ٣٨.

وسبطه: «كان مشغولاً بالعبادة عن حبِّ الرياسة»[٢٩]، وقول ابن طلحة الشافعي: «ذو علم جمّ؛ وعبادة موفرة؛ وأوراد متواصلة؛ وزهادة بيِّنة؛ وتلاوة كثيرة»[٣٠]، وقول الشيخ محمد الصبان: «كان مجاب الدعوة؛ اذا سأل الله شيئاً لايتم قوله الا وهو بين يديه»[٣١].

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام بل يجب التنبيه عليه بالقلم العريض أن زهد الامام لم يكن على غرار زهد الصوفية المتزمتين والرهبان المتقشفين، وانما هو زهد الحكماء العارفين والفلاسفة المتبحرين، فقد روى الحافظ أبو نعيم وغيره من رجال الحديث بأسانيدهم عن سفيان الثوري قوله:

دخلتُ على جعفر بن محمد، وعليه جبة خزٍّ دكناء وكساء خز أيدجاني، فجعلتُ أنظر اليه تعجباً، فقال: مالك ياثوري تنظر الينا؛ لعلك تعجب مما رأيتَ! . قلتُ: يا ابن رسول الله؛ ليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك. فقال: كان ذاك زماناً مقتراً، وكانوا يعملون على قدر إقتاره وإقفاره، وهذا زمان قد أسبل كلُّ شيء فيه عَزَّ اليه. ثم حسر عن ردن جبَّته فاذا تحتها جبة صوف بيضاء يقصر الذيلُ عن الذيلِ والردنُ عن الردن، وقال: لبسنا

(٢٩) صفة الصفوة: ٢/٩٤ وتذكرة الخواص: ٣٥١.
(٣٠) مطالب السؤول: ٢/٥٥.
(٣١) اسعاف الراغبين: ٢١٢.

هذا لله؛ وهذا لكم، فما كان لله أخفيناه؛ وما كان لكم أبديناه»[٣٢].

وأضاف الامام ـ كما في رواية ابن شعبة الحراني ـ قائلاً: «فاذا أقبلت الدنيا فأحقُّ أهلها بها أبرارُها لافجّارها؛ ومؤمنوها لامنافقوها؛ ومسلموها لاكفّارها».

ثم شرح لبعض الصوفية خطأ استدلالهم على صواب طريقتهم بقوله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شحّ نفسه فاولئك هم المفلحون﴾ فمدح فعلهم؛ وبقوله تعالى: ﴿ويُطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾، وقال ـ ع ـ لهم في حديث طويل:

«أمّا ما ذكرتم من إخبار الله إيانا في كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم بحسن فعالهم فقد كان مباحاً جائزاً؛ ولم يكونوا نهوا عنه، وثوابهم منه على الله. وذلك أن الله جل وتقدس أمر بخلاف ما عملوا به فصار أمره ناسخاً لفعلهم، وكان نهي الله تبارك وتعالى رحمة منه للمؤمنين ونظراً، لكيلا يضروا بأنفسهم وعيالاتهم؛ ومنهم الضعفة الصغار والولدان، والشيخ الفان والعجوز الكبيرة الذين لا يصبرون على الجوع. فإنّ تصدقت برغيفي ولا رغيف لي غيره ضاعوا وهلكوا جوعاً. فمن ثَمّ قال

(٣٢) حلية الأولياء: ٣/١٩٣ وتذكرة الحفاظ: ١/١٦٧ وسير أعلام النبلاء: ٦/٢٦١ ـ ٢٦٢ ومطالب السؤول: ٢/٥٦ ـ ٥٧ وبحار الأنوار: ٤٧/ ٣٢١ و٣٦٠.

رسول الله ـ ص ـ: تمرات أو خمس قُرص أو دنانير أو دراهم يملكها الانسان وهو يريد ان يمضيها؛ فافضلها ما أنفقه الانسان على والديه؛ ثم الثانية على نفسه وعياله؛ ثم الثالثة على القرابة واخوانه المؤمنين؛ ثم الرابعة على جيرانه الفقراء؛ ثم الخامسة في سبيل الله وهو أخسّها أجراً. وقال النبي ـ ص ـ للأنصاري حيث أعتق عند موته خمسة أو ستة من الرقيق ولم يكن يملك غيرهم وله اولاد صغار: لو أعلمتموني أمره ما تركتُكم تدفنونه مع المسلمين، ترك صبية صغاراً يتكففون الناس»[٣٣].

ويقول الباحث عبدالرحمن الشرقاوي:

«كانت جماعات الزهاد تحبّب الى الناس الفقر وتدعوهم الى العزوف عن الدنيا. . . وقد شجّع حكام بني امية هذه الجماعات ليصرفوا الناس عن التفكير في النظام ويصرفوهم عن المقارنة بين غنى الحكام وفقر المحكومين. وشجع بنو العباس هذا الاتجاه الى الزهد، ورمى الامام الصادق بنافش الزاهدين، فالزهد كما يفهمه الامام الصادق هو الاكتفاء بالحلال لا التجرد من الحلال. . . ورأى المنصور في الدعوة ضدّ الزهد والفقر تحريضاً لعامة المسلمين على أن يستمتعوا بحقوقهم في المال، ودعوة الى إثارة التمرد»[٣٤].

(٣٣) تحف العقول: ٢٥٧ ـ ٢٥٩.
(٣٤) شخصيات اسلامية: ٤٧.

كرمه ومكارم أخلاقه :

قال اضياج بن بسطام : «كان جعفر الصادق يُطْعِم حتى لا يبقى لعياله شيء»[35].

وقال هشام بن سالم : «كان أبو عبدالله ـ ع ـ اذا أعتم وذهب من الليل شطرُه أخذ جراباً فيه خبز ولحم ودراهم ؛ فحمله على عنقه ، ثم ذهب الى أهل الحاجة من أهل المدينة فقسَّمه فيهم ولا يعرفونه . فلما مضى أبو عبدالله ـ ع ـ فقدوا ذلك ، فعلموا أنه كان أبو عبدالله»[36].

وقال أبو جعفر الخثعمي : «أعطاني الصادق ـ ع ـ صرةً فقال لي : ادفعها الى رجل [سمّاه] من بني هاشم ؛ ولا تعلمه أني أعطيتك شيئاً . قال : فأتيته ، قال : جزاه الله خيراً ؛ مايزال كل حين يبعث بها . . . ولكني لا يصلني جعفر بدرهم»[37].

وقال الفضل بن قرّة : «كان أبو عبدالله ـ ع ـ يبسط رداءه وفيه صُرَر الدنانير ، فيقول للرسول : اذهب بها الى فلان وفلان ؛ من أهل بيته ، وقل لهم : هذه بُعِث بها اليكم من العراق . قال :

(٣٥) حلية الأولياء : ٣/ ١٩٤ والمناقب : ٢/ ٣٤٥ وصفة الصفوة : ٢/ ٩٥ وتذكرة الخواص : ٣٥٢ وسير أعلام النبلاء : ٦/ ٢٦٢ وتذكرة الحفاظ : ١/ ١٦٦ ومطالب السؤول : ٢/ ٥٧ وبحار الأنوار : ٤٧/ ٢٣ و٥٤ .

(٣٦) بحار الأنوار : ٤٧/ ٣٨ .

(٣٧) المناقب : ٢/ ٣٤٥ وبحار الأنوار : ٤٧/ ٢٣ و٥٤ .

فيذهب بها الرسول اليهم فيقول ما قال ، فيقولون : أما أنت فجزاك الله خيراً بصلتك قرابة رسول الله ـ ص ـ ، وأما جعفر فحكم الله بيننا وبينه»[38].

وقال الشّقراني : خرج العطاء أيام أبي جعفر المنصور ، ومالي شفيع ، فبقيتُ متحيِّراً ، واذا أنا بجعفر الصادق ـ ع ـ فقلتُ له : جعلتُ فداك ؛ أنا مولاك الشقران ، فرحُّب بي ، وذكرتُ له حاجتي ، فنزل ودخل وخرج وأعطاني من كُمِّه فصبَّه في كمي ، ثم قال : «ياشقران ؛ ان الحسن من كل أحدٍ حسنٌ وانه منك أحسن لمكانك منّا ، وان القبيح من كل أحدٍ قبيح وانه منك أقبح لمكانك منّا»[39]. وقال سبط ابن الجوزي بعد ايراد ذلك معلِّقاً وشارحاً : «انما قال له جعفر ذلك لأن الشقراني كان قد يشرب الشراب ، فمن مكارم أخلاق جعفر أنه رحُّب به وقضى حاجته ، ووعظه على جهة التعريض . وهذا من أخلاق الأنبياء»[40].

وجاء في الرواية ان جعفر بن محمد ـ ع ـ لما حضرته الوفاة كان من جملة وصاياه إعطاء الحسن بن علي الملقب بالأفطس مقداراً عيَّنه من المال ، فقيل له : «أتعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة ، أو : أتوصي له بذلك وقد قعد لك بخنجر ، يريد أن يقتلك؟!» ،

(٣٨) بحار الأنوار : ٤٧/ ٦٠ .

(٣٩) المناقب : ٢/ ٣١٥ .

(٤٠) تذكرة الخواص : ٣٥٥ .

فقال لمن اعترض عليه: أتريدون أن أكون ممن قال الله تعالى: ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصل﴾، والله لأصلنّ رحمه وإن قطع»[41].

ولعلّ من أروع ما أثر عنه في مكارم الأخلاق وسمو المعنى في سمو الذات ماورواه سفيان الثوري من أنه دخل يوماً على الامام الصادق ـ ع ـ «فرآه متغيّر اللون، فسأله عن ذلك فقال: كنتُ تهيتُ أن يصعدوا فوق البيت، فدخلتُ فاذا جارية من جواريّ ممن تُربّي بعض ولدي قد صعدت في سلّم والصبي معها، فلما بصرتْ بي ارتعدت وتحيّرت وسقط الصبي الى الأرض فمات، فما تغيّر لوني لموت الصبي، وانما تغير لوني لما أدخلتُ عليها من الرعب»[42].

ويجب علينا أن لا نغفل ـ ونحن نقرأ هذه الروايات وكثيراً من أمثالها مما لم يتّسع هذا المختصر لايراده ـ ان ذلك الكرم والسخاء لم يكن بسبب وفرة الاموال الشرعية التي كانت ترد الى الامام من أطراف العالم الاسلامي، لأن انفاق تلك الأموال في مواردها المشروعة لايعد جوداً منه أو كرماً، وانما هو جزء لا يتجزأ من صلب واجبه الديني المقرّر في أن ينال كلُّ ذي حق حقّه؛ ويصل الى كل ذي سهم في ذلك المال سهمُه المعيّن كاملاً غير منقوص.

(٤١) سر السلسلة العلوية: ٧٧ والمناقب: ٢/٣٤٥ وبحار الأنوار: ٤٧/٢٧٦.
(٤٢) المناقب: ٢/٣٤٦ وبحار الأنوار: ٤٧/٢٤.

ولكن كثيراً من ذلك السخاء والعطاء انما يرجع في الواقع الى ماله الخاص الذي يحصل عليه من أرباح زروعه وغلّات أراضيه، وقد عرفنا منها بالذات أرضه التي كانت تعرف باسم عين زياد، وكانت غلتها ـ كما جاء في بعض الروايات ـ أربعة آلاف دينار[43].

وكان ـ عليه السلام ـ يعمل في أرضه بيده، ويستفرغ وسعه وجهده في حرثها وزرعها، وورد في الرواية عن أبي عمرو الشيباني انه قال: «رأيت أبا عبدالله ـ ع ـ وبيده مسحاة، وعليه ازار غليظ، يعمل في حائط له، والعرق يتصابُّ عن ظهره»، وهو يقول: «اني أُحبُّ أن يتأذّى الرجل بحرّ الشمس في طلب المعيشة»[44].

وروى اسماعيل بن جابر قال: «أتيتُ أبا عبدالله ـ ع ـ واذا هو في حائطٍ له، بيده مسحاة وهو يفتح بها الماء، وعليه قميص شبه الكرابيس كأنه مخيط عليه من ضيقه»[45].

وعن هشام بن أحمد ـ أو: أحمر ـ أنه دخل على أبي عبدالله ـ ع ـ وهو يريد أن يسأله عن مسائل، والامام في مَصْنَعَةٍ له ـ أي مكانٍ يجتمع فيه الماء ـ أو في ضيعةٍ له، في يومٍ شديد الحر،

(٤٣) الكافي: ٣/٥٦٩ وبحار الأنوار: ٤٧/٥١.
(٤٤) الكافي: ٥/٧٦ وبحار الأنوار: ٤٧/٥٧.
(٤٥) الكافي: ٥/٧٦ وبحار الأنوار: ٤٧/٥٦.

«والعرق يسيل على خدّه فيجري على صدره»[46].

وعلى الرغم من كل ذلك الايراد الزراعي الجيد؛ وكل تلك الأموال الشرعية التي ترسل من هنا وهناك، فقد أفاد بعض النصوص التاريخية ان الامام ـ ع ـ لم يكن ذا غنى وقير على مرّ الأيام، بل لم يكن ذا حدٍّ أدنى من الكفاية والكفاف على الدوام ـ وهذا شأن السخيّ الجواد المتدفق بالمعروف ـ، حتى أُثر عنه أنه كان يقول:

«إني لأمِلق أحياناً فأتاجر اللهَ بالصدقة فيُربحني»[47].

الخلفاء المدّعون للامامة
في عصر الامام الصادق (ع)

أ ـ هشام بن عبدالملك:

مات هشام في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥هـ[48]، وكان قد ولي مقاليد الحكم في سنة ١٠٥هـ[49]، وفي أيامه السوداء توفي

(٤٦) بحار الأنوار: ٤٧/٦٨ و٣٤٠.
(٤٧) زهر الآداب: ١/١٢٣.
(٤٨) تاريخ الطبري: ٧/٢٠٠ ومروج الذهب: ٣/١٣٩.
(٤٩) تاريخ الطبري: ٧/٢٥.

الامام الباقر (ع) في سنة ١١٤هـ، وتوجهت أصابع الاتهام الى هشام بدسّ السمّ اليه كما تقدّم، كما شهدت أيامه المشؤومة ثورة زيد بن علي بن الحسين (ع) في سنة ١٢١هـ، وقامت المواجهة بين الثوار وجيش السلطة، ثم أسفرت المعركة عن شهادة زيد وعددٍ كبير من أنصاره في سنة ١٢٢هـ[50]، وجيء برأس زيد هدية الى جدّه رسول الله ـ ص ـ فصُلب بالمدينة المنورة في سنة ١٢٣هـ[51]!!.

وكانت أيام هشام شديدة الصعوبة على الناس؛ حتى قيل: «لم يُرَ زمان أصعب من زمانه[52]».

ب ـ الوليد بن يزيد:

تقلّد السلطة يوم وفاة هشام سنة ١٢٥هـ[53]. وفي أيامه ظهر «يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ عليهم السلام ـ، بالجوزجان من بلاد خراسان، منكراً للظلم وما عمّ الناسَ من الجور»[54]، فسار اليه نصرُ بن سيّار في جيش ضخم،

(٥٠) تاريخ الطبري: ٧/١٦٠ و١٨٠ ومروج الذهب: ٣/١٣٩.
(٥١) تاريخ الطبري: ٧/١٨٩.
(٥٢) مروج الذهب: ٣/١٣٩.
(٥٣) تاريخ الطبري: ٧/٢٠٨.
(٥٤) مروج الذهب: ٣/١٤٥.

والتحم الفريقان، واستشهد يحيى في هذه المعركة في سنة ١٢٥هـ[٥٥].

«وكان الوليد بن يزيد صاحب شراب ولهو وطرب. . . وكان متهتكاً ماجناً خليعاً، وله شعر ماجن أفحش فيه حتى ببنات عمه هشام، كما ان له الكثير من قصص الفسق والفجور، ورُوي له الشعر الذي استهان فيه بالقرآن الكريم لما نصبه غرضاً للشّاب وأقبل يرميه بالسهام، كما رُوي له الشعر الذي أنكر فيه نزول الوحي الالهي على النبي ـ ص ـ»[٥٦].

ولم يجد الناس من سبيل للتخلص من هذا الرجل الذي ظهر من فسقه وكفره ما لا يطاق غير أن يهبُّوا عليه هبَّة رجل واحد فيقتلوه في سنة ١٢٦هـ[٥٧].

ج ـ يزيد بن الوليد:

ملك بعد قتل أبيه في جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ، ولم تطل أيام ملكه أكثر من خمسة شهور، ومات يوم الأحد هلال ذي الحجة سنة ١٢٦هـ[٥٨].

(٥٥) تاريخ الطبري: ٢٢٩/٧ ـ ٢٣٠ ومروج الذهب: ١٤٥/٣.
(٥٦) تاريخ الطبري: ٢٠٩/٧ ـ ٢١٢ و٢٣١ ومروج الذهب: ١٤٦/٣ ـ ١٤٩ وتاريخ الخلفاء: ١٦٦ ـ ١٦٧.
(٥٧) تاريخ الطبري: ٢٥٠/٧ ومروج الذهب: ١٥٧/٣ وتاريخ الخلفاء: ١٦٦.
(٥٨) تاريخ الطبري: ٢٦١/٧ و٢٩٨ ومروج الذهب: ١٥٢/٣ وتاريخ الخلفاء: ١٦٨.

د ـ ابراهيم بن الوليد:

ولي الملك بعد وفاة أخيه يزيد، «وكانت أيامه عجيبة الشأن من كثرة الهرج والاختلاط واختلاف الكلمة وسقوط الهيبة»[٥٩].

وخرج ابراهيم هارباً من دمشق بعد أن دخلها مروان بن محمد بن مروان قادماً من الجزيرة، ثم ظفر به مروان فقتله وصلبه وقتل من مالأه ووالاه، وذلك في سنة ١٢٧هـ[٦٠]. وقيل: انه قُتل فيمن قتل من بني امية في وقعة السفّاح[٦١].

هـ ـ مروان الحمار:

آخر ملوك بني امية، وقد تسلّط على الأمر في صفر سنة ١٢٧هـ بعد فرار سلفه ابراهيم بن الوليد من دمشق[٦٢].

وكانت الحركة المناوئة للامويين وحكمهم الأسود قد نجحت في استقطاب عواطف الجماهير وفي السيطرة على بلاد المسلمين في المشرق، ثم تحرك الثوار بالنجاء القضاء على مروان نفسه وقاعدة

(٥٩) مروج الذهب: ١٥٢/٣.
(٦٠) تاريخ الطبري: ٢٩٩/٧ ـ ٣٠٢ و٣١١ ومروج الذهب: ١٥٧/٣.
(٦١) تاريخ الخلفاء: ١٦٩.
(٦٢) تاريخ الطبري: ٣١١/٧.

حكمه، فسار مروان حتى نزل على الزاب الصغير وعقد عليه الجسر، وأتاه عبدالله بن علي في عساكر أهل خراسان؛ وذلك للبلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة ١٣٢هـ، وحدثت المواجهة بين الطرفين فانهزم مروان، ومضى في هزيمته حتى أتى الموصل، فمنعه أهلها من الدخول اليها، فأتى حرّان وعبر الفرات حتى انتهى الى نهر أبي فطرس من بلاد فلسطين والاردن فنزل عليه، وسار عبدالله بن علي حتى نزل دمشق. ولحق مروان بمصر، ورحل صالح بن علي أحد القادة العباسيين في طلبه فأدركه بصر، وقُتل مروان ليلة الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢هـ[٦٣].

وبهذا تم إسدال الستار على حكم بني امية الذي دام ألف شهر، وعانى المسلمون منه ما عانوا من الوان البطش والضيم والعذاب والتشريد، وقدّموا خلاله ما قدّموا مما يعسر عدُّه وحصره من ضحايا وشهداء، ولله في خلقه شؤون، وعند الله تجتمع الخصوم.

و ـ أبو العباس السفاح (أول ملوك بني العباس):

عندما زاد اضطراب حبل الدولة الاموية وتصاعد التململ العام ضدها في أطراف العالم الاسلامي؛ بادر العباسيون الى

(٦٣) تاريخ الطبري: ٧/٤٣٢ ـ ٤٤٢ ومروج الذهب: ٣/١٧٥ ـ ١٧٦ وتاريخ الخلفاء: ١٧٠.

استغلال ذلك لصالح طموحاتهم السياسية، واختاروا خراسان نقطة الانطلاق الكبرى لهم، لأنها كانت أقوى بؤر التمرد ومراكز العصيان والخروج على الدولة، فبعث محمدُ بن علي بن عبدالله ابن العباس رجلاً من أصحابه الى هناك، وأمره أن يدعو الى الرضا من آل محمد ـ ص ـ ولا يسمّي أحداً باسمه[٦٤]؛ تمهيداً لبدء الزحف واعلان الثورة، «ثم وجّه أبا مسلم الخراساني وغيره، وكتب الى النقباء فقبلوا كتبه، ثم لم ينشب أن مات محمد فعهد الى ابنه ابراهيم، فبلغ خبرُه مروانَ فسجنه ثم قتله. فعهد الى أخيه عبدالله ـ وهو السفّاح ـ»، فاجتمع اليه العباسيون وسائر الناقمين على الامويين، فبلغ مروان ذلك فخرج لقتاله فانكسر ـ كما تقدّم ـ ثم قُتل[٦٥].

وملك أبو العباس «ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر من سنة ١٣٢هـ، وقيل: في النصف من شهر جمادى الآخرة من هذه السنة. . . . ومات بالأنبار. . . يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ١٣٦هـ»[٦٦].

«وكان السفاح سريعاً الى سفك الدماء، فاتبعه في ذلك عمّاله بالمشرق والمغرب»[٦٧]، ويعدُّ من أبرز أمثلة ذلك وشواهده

(٦٤) تاريخ الطبري: ٧/٤٩.
(٦٥) تاريخ الخلفاء: ١٧١. ويراجع في التفاصيل تاريخ الطبري: ٧/٢٢٧ و٤٢٣.
(٦٦) مروج الذهب: ٣/١٨١.
(٦٧) تاريخ الخلفاء: ١٧٢.

الناطقة تدبيره خطة قتل قائدهم الكبير ووزيرهم المعروف أبي سلمة الخلّال[٦٨]، مما لا مجال لشرحه بالتفصيل.

ز ـ أبو جعفر المنصور:

ملك يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ١٣٦هـ، ومات يوم السبت لست خلون من ذي الحجة سنة ١٥٨هـ[٦٩]، وكان قد ولي الأمر بعهد من أخيه السفاح.

ويروي الحافظ السيوطي أنه «قتل خلقاً كثيراً حتى استقام ملكه.. وهو الذي ضرب أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ على القضاء ثم سجنه فمات بعد أيام، وقيل: انه قتله بالسم لكونه أفتى بالخروج عليه»[٧٠].

وكان من جملة قتلاه وضحاياه أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة وممهّد المُلك وقائد جيش النصر[٧١].

وفي سنة ١٣٩هـ وقيل: ١٤٠ «أمر أبو جعفر بحبس عبدالله بن الحسن (الحسني العلوي) وبحبس مَنْ كان معه من أصحابه وبقتل بعضهم»[٧٢]، وأقام عبدالله في الحبس ثلاث سنين جدّ

(٦٨) تاريخ الطبري: ٧/٤٤٩، ٤٥٠.
(٦٩) مروج الذهب: ٣/٢٠٩.
(٧٠) تاريخ الخلفاء: ١٧٢.
(٧١) تاريخ الطبري: ٧/٤٧٩ ـ ٤٩٢.
(٧٢) تاريخ الطبري: ٧/٥٠١ و٥٣٧ و٥٤٧ ـ ٥٤٩، ٥٥٠ ـ ٥٥١

المنصور خلافها في طلب محمد وابراهيم ابني عبدالله[٧٣]. ثم أشرف المنصور بنفسه على جمع هؤلاء المسجونين جميعاً في سجن الربذة، وعلى تعذيبهم هناك بأبشع صور التعذيب، ثم أمر بنقلهم جميعاً الى سجن الهاشمية في العراق[٧٤].

«وفي سنة خمس وأربعين كان خروج الأخوين محمد وابراهيم ابني عبدالله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فظفر بهما المنصور فقتلهما وجماعة كثيرة من آل البيت ـ فانّا لله وانا اليه راجعون ـ. وكان المنصور أول مَنْ أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين، وكانوا قبل شيئاً واحداً»[٧٥].

«وأذى المنصور خلقاً من العلماء ممن خرج معهما أو أمر بالخروج؛ قتلاً وضرباً وغير ذلك. وممن أفتى بجواز الخروج مع محمد على المنصور مالكُ بن أنس ـ رحمه الله ـ، وقيل له: ان في أعناقنا بيعة للمنصور، فقال: انما بايعتم مكرهين، وليس على مُكرَهٍ يمين»[٧٦].

وبلغ من حقد المنصور على أهل المدينة المنوّرة لتأييدهم ثورة محمد انه «لمّا قُتل محمدٌ أمر أبو جعفر بالبحر فأقفل على ١٥

(٧٣) تاريخ الطبري: ٧/٥٢٥ و٥٢٧.
(٧٤) تاريخ الطبري: ٧/٥٤٢ و٥٤٦.
(٧٥) تاريخ الخلفاء: ١٧٣. ويراجع تاريخ الطبري: ٧/٥٩٧، ٦٠٩ و٦٢٢ و٦٤٧.
(٧٦) تاريخ الخلفاء: ١٧٣ ـ ١٧٤.

المدينة، فلم يُحْمَل اليهم من ناحية البحار شيء، حتى كان المهديُّ فأمر بالبحر ففُتح لهم؛ وأُذن في الحمل»[٧٧].

«وفي سنة سبع وأربعين خلع المنصور عمَّه عيسى بن موسى من ولاية العهد، وكان السفاح عهد اليه بذلك من بعد المنصور، وكان عيسى هو الذي حارب له الأخوين فظفر بهما، فكافاه بان خلعه مُكرهاً وعهد الى ولده المهدي»[٧٨].

وكان من جملة أمثلة بطش المنصور بالقادة الكبار الذين أسّسوا الدولة وأرسوا دعائمها: غدره بعمه عبدالله بن علي، لأنه كان يخشى منه على ولده المهدي الذي يريد أن يمهد له وسائل الحكم من بعده»[٧٩].

«وفي سنة ثمان وخمسين أمر المنصور نائبه بمكة بحبس سفيان الثوري وعبّاد بن كثير، فحُبسا، وتخوّف الناس أن يقتلهما المنصور اذا ورد الحج، فلم يوصله اللهُ مكة سالماً، بل قدم مريضاً ومات، وكفاهما الله شرّه»[٨٠].

ومن طرائف ما يروى في ترجمة المنصور: أنه سأل عبدالرحمن

(٧٧) تاريخ الطبري: ٦٠٣/٧.
(٧٨) تاريخ الخلفاء: ١٧٤. ويراجع في تفاصيل ذلك تاريخ الطبري: ٩/٨ ـ ١٩.
(٧٩) تاريخ الطبري: ٤٧٤/٧ ـ ٤٧٥ و٤٧٨ و٨/ ٨ ـ ٩، وتراجع هناك طريقة قتل هذا الرجل والتخلص منه.
(٨٠) تاريخ الخلفاء: ١٧٤.

ابن زياد بن أنعم الافريقي ـ وكان صديقه قبل الخلافة ـ: كيف سلطاني من سلطان بني امية؟، فأجابه: «مارأيتُ في سلطانهم من الجور شيئاً الاّ رأيته في سلطانك»[٨١].

كما ان من تلك الطرائف قوله يوماً لجلسائه بعد قتله محمداً النفس الزكية وأخاه ابراهيم: «تالله ما رأيت رجلاً أنصح من الحجاج لبني مروان. فقام المسيَّب بن زهرة الضبي فقال: يا أمير المؤمنين؛ ما سَبَقَنا الحجاج بأمرٍ تخلّفنا عنه، واللهِ ما خلق اللهُ على جديد الأرض خَلْقاً أعزُّ علينا من نبينا ـ ص ـ وقد أمرنا بقتل أولاده فأطعناك وفعلنا ذلك، فهل نصحناك أم لا؟! فقال له المنصور: اجلس لاجلستَ»[٨٢].

ويلخّص لنا الدكتور حسين مؤنس مظالم المنصور وأخيه السفاح بعد حديثه عن الظلم أيام بني امية فيقول في جملة ذلك:

«ان ما وقع على الناس من المظالم أيام بني العباس كان أهول وأبشع، ولقد قتل أبو العباس السفاح وأعمامه الوفاً كثيرة ظلماً وعدواناً، وجاء أخوه أبو جعفر المنصور فقتل من الناس أكثر، وكان في جملة المقتولين أعمامه، وهانت الدماء على رجال بني العباس حتى ان الانسان ليترحم على أيام الجاهلية»[٨٣].

★★★

(٨١) تاريخ الخلفاء: ١٧٨.
(٨٢) مروج الذهب: ٢٢٤/٣.
(٨٣) مجلة اكتوبر القاهرية/ العدد ٣٣٤/ ٢٠ مارس ١٩٨٣م/ من بحث متسلسل له بعنوان (ظلمات بعضها فوق بعض) الحلقة الرابعة.

ونعود بعد هذه الجولة الواسعة بين النصوص النبوية الشريفة المعنية بشؤون الامامة؛ وذلك الاستكشاف والاستشراف للروايات التاريخية الموثقة وشهادات ذوي الدراية والخبرة، الى موضوع بحثنا الرئيس، فلا نجد من سبيلٍ لأي وجهٍ من وجوه المقارنة بين جعفر بن محمد الصادق؛ وبين اولئك المتربعين على أرائك الحكم من الفسقة الفجرة شاربي الخمور ومرتكبي الشرور وقاتلي النفوس المحترمة. ولا مجال لأي توقف أو تردد في كون جعفرٍ بالذات هو الامام الأوحد في ذلك العصر؛ الذي يجب على كل مسلمٍ الاقرار بإمامته الدينية؛ والايمان بولايته الشرعية؛ والاعتراف بعدم وجود أي منازع له في ذلك بالقطع واليقين القائمين على النص والتعيين من جانب؛ وعلى اجتماع الشروط والصفات من جانب آخر.

ومع أن المجال هنا أضيق من أن يتسع لبحث صميم مسألة الامامة وجذرها الأصيل المقرّر في الدين، فلابد لنا من الاشارة الى أن الباحث الموضوعي المحايد يقف حائراً أمام طوائف من المسلمين يفترض أنها ذات فكرٍ ورأي واستدلال؛ ولكنها لم تقرّر موقفاً ثابتاً من قانون الامامة في الاسلام؛ ولم تقدّم للناس حكم الله المحدّد في هذا الموضوع. فهل الانقلاب العسكري وسيلة شرعية من وسائل الامامة كما فعل العباسيون عندما انتصروا على الامويين في الحرب فانتزعوا منهم السلطة وادعوا بأنهم أصبحوا

الأئمة والخلفاء عن رسول الله ـ ص ـ؟؟!. وهل قيام أحد أفراد بيت الحكم بقتل الخليفة وتنصيب نفسه خليفة بعده ـ كقتل مروان الحمار سلفه ابراهيم بن الوليد ـ مسوّغ شرعاً لادعاء الامامة وملزم بتصديقه من ثَمَّ في هذا الادعاء؟؟!

وأين كل هذا مما زُعِم بعد وفاة النبي ـ ص ـ في صدر الاسلام من وجوب الانتخاب ولزوم الشورى وضرورة تحكيم أهل الحلّ والعقد؟؟!

بل كيف يلتئم هذا الأمر الواقع مع ما أكده الشيخ محمد أبو زهرة من اتفاق جمهور المسلمين «على أن الامام الذي تكون خلافته نبوية يجب أن يكون قرشياً عادلاً يختار بشورى المؤمنين. . . وانه يكون إماماً مادام قائماً بالعدل، فاذا انحرف لاتستمر إمامته نبوية، بل تكون ملكاً دنيوياً»[٨٤].

إنها أسئلة لا جواب لها الا أن نقول: هكذا تقتضي السياسة، وهكذا هو منطق الدنيا.

وبديهي ان ذلك كله لايمت الى شرع الله بصلة؛ ولايرتبط بخطوط الاسلام وأفكاره من قريب أو بعيد.

---

(٨٤) الامام الصادق: ٢١٢.

عاصر الامام خلال حقبة إمامته التي امتدت قرابة أربع وثلاثين سنة؛ من أحداث ذلك العصر وحوادثه وتقلباته الشيء الكثير أو ماهو أكثر من الكثير، وكان في جملة ذلك ما يتعلق به وبأهل بيته خاصة، وفيه ما يرتبط بشؤون المجتمع الاسلامي على وجه العموم. وقد وقف من كل تلك الأحوال والأهوال موقف الحكيم الواعي الصابر الذي لم تستبد برزانته عاطفة هوجاء، ولم تعصف بثباته عصبية رعناء، ولم تخرجه عن موقفه الراسخ فتنة عمياء، ولم تمل به عن الاستقامة المطلقة تلك الوقائع والمواجع العنيفة الوقع والتأثير، فلم ينحرف في كل ذلك - وحاشاه - ذات يمين أو شمال.

وكما قلنا في كتابينا السابقين المعنيين بالامامين علي بن الحسين وابنه الباقر - عليهما السلام -: ان أئمة أهل البيت لم يكونوا هواة حكم وطالبي سلطان؛ بالمفهوم الدنيوي للحكم والسلطان، ومن هنا كان هذان الامامان ومن بعدهما نجلهما جعفر بعيدين جداً عن حركات الثورة والتمرد على العرش الاموي، فلم يأمروا بشيء من ذلك ولم يأذنوا به ولم يشتركوا فيه، من دون أن يكون في هذه السلبية تجاه تلك الثورات أي إشعار أو إقرار

بأحقية اولئك الحكام بالملك والسلطان؛ أو شهادة ضمنية بسلامة مواقفهم في المنظور الشرعي للخلافة الاسلامية.

وكان أوجع ما أصيب به الامام خلال البقية الباقية من العهد الاموي الأسود ما أصاب عمّه الشهيد زيد بن علي بن الحسين حينما ثار على الامويين؛ وماآلت اليه ثورته تلك من فشل ذريع لم يحرّك ساكن ذوي الدين من المسلمين؛ ولم يؤجج نار غضبهم؛ ولم يلهب مشاعرهم الخامدة الخامدة، بخلاف ثورة الحسين - ع - التي آلت في يومها الى الفشل أيضاً، ولكنه الفشل الذي أشعل فتيل النقمة وبدّد ضباب الاستسلام؛ وجعل من ثارات الحسين شعاراً لكل ثائر ورمزاً لكل حامل سلاح ضد الدولة الاموية، مما يؤكد عدم صحة المقارنة بين الثورتين أو قياس ثانيتهما على الاولى.

وكان تقويم الأئمة (ع) لثورة زيد - كما دلتنا عليه الشواهد التاريخية - مطابقاً تماماً لما انتهت اليه من عواقب وأسفرت عنه من نتائج، بل كاد أن يكون قراءة غيبية دقيقة لما سينكشف عنه الغبار ويؤول اليه الأمر، ولذلك أشار الامام الباقر (ع) على أخيه بعدم الثورة، ونهاه عن الركون الى أهل الكوفة ومواعيدهم الماكرة، فأبى زيدٌ الا ما عزم عليه، فقال له الامام الباقر: «اني أخاف عليك ياأخي أن تكون غداً المصلوب بكناسة الكوفة»[1].

(١) الكافي: ١/٣٥٦ و٣٥٧ ومروج الذهب: ٣/١٣٩ - ١٤٠.

وكذلك كان موقف الامام الصادق (ع) من عمّه لما زاره قبيل إعلان ثورته، «وجلسا طويلاً يتشاوران؛ ثم علا الكلام بينهما، فقال زيد: دع ذا عنك يا جعفر؛ فوالله لئن لم تمدَّ يدك حتى أبايعك أو هذه يدي فبايعني، لأتعبنّك ولأكلفنّك ما لا تطيق.. فقال الصادق (ع): يرحمك الله ياعم، يغفر الله لك ياعم، وزيد يسمعه ويقول: موعدنا الصبح؛ أليس الصبح بقريب. ومضى»[2].

ولما هرب يحيى بن زيد الى خراسان واجتمع عليه هناك بعض الناس لأخذ الثأر؛ بلغ ذلك الامام الصادق فقال ـ ع ـ: «انه يقتل كما قتل أبوه، ويصلب كما صلب أبوه، فقُتِل... وصُلب»[3].

ولم يكن هذا الموقف من الامام الصادق منبعثاً عن استهانة بعمه أو عدم احترام له، فقد حدثنا أبو الفرج الاصبهاني عن عبدالله بن جرير قال: «رأيت جعفر بن محمد يمسك لزيد بن علي بالركاب؛ ويسوّي ثيابه على السرج»[4].

وروى ابن أعثم الكوفي: ان الامام الصادق لما بلغه نبأ مقتل عمه زيد استعبر باكياً. وقرأ قوله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال

(٢) بحار الأنوار ٤٧/١٢٨.
(٣) ينابيع المودة: ٣٨١.
(٤) مقاتل الطالبيين: ١٢٩.

صدقوا ما عاهدوا الله عليه ـ الى آخر الآية﴾ ثم قال: «ذهب والله عمي زيد وأصحابه على ما ذهب عليه جدُّه علي والحسن والحسين ـ عليهم السلام ـ، شهداء، من أهل الجنة.. فويل لقاتليهم من جبار الأرض والسماء»[5].

وجاء في الرواية أيضاً: ان الحسين بن زيد بن علي الملقب بذي الدمعة «كان مقيماً في منزل جعفر بن محمد، وكان جعفر ربّاه ونشأ في حجره منذ قُتِل ابوه، وأخذ عنه علماً كثيراً»[6].

والمستفاد من مجموع ذلك ان احترام الامام لعمّه وافتجاعه بشهادته وشهادة أصحابه الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه لم يكن محل شك أو ريب، ولكنه على الرغم من ذلك لم يعلن تأييده لثورته ليقينه بعدم ملاءمة الظروف لذلك، لأن الثورة في رأيه ليست غاية في حدّ ذاتها ولن يتحقق أثرها المؤمّل بمجرد إعلان الخروج على النظام الفاسد، وانما هي وسيلة اضطرارية من وسائل الاصلاح والتغيير؛ وملجأ أخير لا يصح اللجوء اليه الا عندما يتأكد الضمان الكامل بتوفر جميع المتطلبات الأساسية المؤدية في المدى المباشر أو غير المباشر الى هدم ذلك النظام وقلعه من جذوره.

★★★

(٥) فتوح ابن أعثم: ٨/١٢٥.
(٦) مقاتل الطالبيين: ٣٨٧.

وماهي الاسنيات تمرُّ؛ واذا بالتمرد على سلطان بني امية يتصاعد هنا وهناك، واذا بالتجمعات الجماهيرية تتحلّق حول المتصدين لقيادتها؛ بعزم راسخ وتصميم ثابت للاطاحة بدولة الجور والضلال.

وبقدر تعلّق الأمر بالامام الصادق ـ ولسنا بصدد البحث في تفاصيل قيام الدولة العباسية ـ نروي وقائع جلسة بني هاشم التي انعقدت بمناسبة الحج وتحت غطائه؛ بالأبواء قريباً من المدينة المنورة؛ للتداول في أمر الثورة ومستقبلها المنتظر:

روى أبو الفرج الاصبهاني وغيره:

ان جماعة من بني هاشم اجتمعوا بالأبواء؛ وفيهم: ابراهيم ابن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس؛ وأبو جعفر المنصور؛ وصالح بن علي؛ وعبدالله بن الحسن بن الحسن؛ وابناه محمد وابراهيم؛ ومحمد بن عبدالله بن عمرو.

فقال صالح بن علي: قد علمتم أنكم الذين تمدُّ الناسُ عينهم اليهم، وقد جمعكم الله في هذا الموضع، فاعقدوا بيعةً لرجلٍ منكم تُعطونه اياها من أنفسكم، وتواثقوا على ذلك حتى يفتح الله وهو خير الفاتحين.

فحمد اللهَ عبدُالله بن الحسن وأثنى عليه، ثم قال: قد علمتم أن ابني هذا هو المهدي فهلموا فلنبايعه.

وقال أبو جعفر: لأي شيء تخدعون أنفسكم، ووالله لقد علمتم ما الناسُ الى أحدٍ أصْوَرَ أعناقاً ولا أسرع إجابةً منهم الى

هذا الفتى ـ يريد محمد بن عبدالله ـ.

قالوا: قد ـ واللهِ ـ صدقتَ، ان هذا لهو الذي نعلم.

فبايعوا جميعاً محمداً ومسحوا على يده.

قال عيسى بن عبدالله بن محمد بن عمر بن علي: وجاء رسولُ عبدالله بن الحسن الى أبي: أن ائتنا فانّا مجتمعون لأمرٍ، وأرسل بذلك الى جعفر بن محمد (ع). هكذا قال عيسى، وقال غيره: قال لهم عبدالله بن الحسن: لانريد جعفراً لئلا يفسد عليكم أمركم.

قال عيسى: فأرسلني أبي أنظر ما اجتمعوا عليه. فقلتُ: أرسلني أبي اليكم لأسألكم لأي شيء اجتمعتم؟.

فقال عبدالله: اجتمعنا لنبايع المهدي محمد بن عبدالله.

وجاء جعفر بن محمد فأوسع له عبدُالله بن الحسن، فتكلّم بمثل كلامه.

فقال جعفر: لاتفعلوا، فان هذا الأمر لم يأت بعد. إن كنتَ ترى ـ يعني عبدَ اللهِ ـ ان ابنك هذا هو المهدي فليس به.. وإن كنتَ انما تريد أن تخرجه غضباً لله وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فانّا واللهِ لاندعك ـ وأنت شيخنا ـ ونبايع ابنك.

فغضب عبدالله وقال: لقد علمتَ خلاف ما تقول، ووالله ما اطلعك اللهُ على غيبه، ولكن يحملك على هذا الحسدُ لابني.

فقال جعفر: واللهِ ماذاك يحملني، ولكنّ هذا واخوته

وابناؤكم دونكم ـ وضرب بيده على ظهر أبي العباس ـ. ثم ضرب بيده على كتف عبدالله بن الحسن وقال: انها واللهِ ما هي اليك ولا الى ابيك، ولكنها لهم، وان ابنيك لمقتولان. ثم نهض وتوكأ على يد عبدالعزيز بن عمران الزهري فقال: أرأيتَ صاحب الرداء الأصفر ـ يعني أبا جعفر ـ؟، قال: نعم: قال: فانّا واللهِ نجده يقتله. قال له عبدالعزيز: أيقتل محمداً؟، قال: نعم. قال: فقلتُ في نفسي: حَسَدَه وربِّ الكعبة، قال: ثم واللهِ ما خرجتُ من الدنيا حتى رأيتُه قتلها.

قال: فلما قال جعفر ذلك نفض القوم فافترقوا ولم يجتمعوا بعدها. وتبعه عبدالصمد وأبو جعفر فقالا: يا أبا عبدالله أتقول هذا؟!، قال: نعم أقوله ـ واللهِ ـ وأعلمه.

وفي نصّ آخر لأبي الفرج الأصبهاني أيضاً:

«ان جعفر بن محمد قال لعبدالله بن الحسن: ان هذا الأمر ـ واللهِ ـ ليس اليك ولا الى ابنيك، وانما هو لهذا ـ يعني السفاح ـ ثم لهذا ـ يعني المنصور ـ، ثم لولده من بعده».

«فقال عبدالله: واللهِ يا جعفر؛ ما أطلعك اللهُ على غيبه، وما قلتَ هذا الاّ حسداً لابني.

«فقال: لا واللهِ؛ ما حسدتُ ابنك، وان هذا ـ يعني أبا جعفر ـ يقتله على أحجار الزيت ثم يقتل أخاه بعده. ثم قام مغضباً يجر رداءه، فتبعه أبو جعفر فقال: أتدري ما قلتَ يا أبا

عبدالله؟، قال: اي واللهِ أدريه، وانه لكائن».

وروى عنبسة بن نجاد قال: «كان جعفر بن محمد اذا رأى محمد بن عبدالله بن حسن تغرغرت عيناه ثم يقول: بنفسي هو. انه لمقتول، ليس هذا في كتاب عليٍّ من خلفاء هذه الامة»[٧].

ويعلّق الحافظ ابن حجر الهيتمي على هذا الاجتماع وما ورد فيه من قراءةٍ للغيب وإخبارٍ عنه فيقول:

«وسبق جعفراً الى ذلك والده الباقر. وقال: هذا ما عهد اليّ أبي»[٨].

ومع صراحة الامام (ع) ـ وانه الصادق حقّاً ـ في رواية هذه القراءة الغيبية للأحداث عن أبيه بالذات، وصراحة أبيه في كون ذلك مما عهد به أبوه زين العابدين (ع) اليه، وصراحة نسبة هذا الأمر بكامله الى كتاب جدّهم عليّ بن أبي طالب (ع) الذي دوّن فيه أخبار الغيب كما سمعها من المطلع عليها أدقّ اطلاع وأفضله وهو رسول الله (ص)، وصراحة الأحاديث المتعددة بأن النبي ـ ص ـ قد أخبر أصحابه بما هو كائن من الأحداث الى قيام الساعة

---

(٧) وردت هذه الروايات بتفاصيلها في مقاتل الطالبيين: ٢٠٦ ـ ٢٠٨ و٢٥٥ ـ ٢٥٦ والارشاد: ١٩٥ ـ ٢٩٦، ومضامينها باختصار في نثر الدر: ١/٣٧٢ ـ ٣٧٣ والفخري: ١٤١ ـ ١٤٢ والصواعق المحرقة: ١٢١ وبحار الأنوار: ٤٧/٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٨) الصواعق المحرقة: ١٢١. وتراجع هذه الرواية بتفصيل أكثر في ينابيع المودة: ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

«حفظه من حفظه ونسيه من نسيه» كما يأتي بيانه عند الحديث عن الجفر والجامعة في الفصل الأخير.

أقول: ان مما يؤسف له ان يغيب ذلك كله عن عين الشيخ محمد أبو زهرة وذهنه فيسمي أقوال الامام الصادق المتقدمة في مجلس اجتماع الهاشميين بأنها فراسة وألمعية، ويقول في بيان ذلك:

«كان الصادق ذا فراسة قوية... وكان ينهى كل الذين خرجوا في عهده عن الخروج... والحوادث التي تدل على فراسته كثيرة... وان الأحداث التي نزلت بأسرته ووقعت حوله... قد جعلته ذا إحساس قوي... فكان بهذا من أشدّ الناس فراسة وألمعية؛ وأقواهم يقظة حسّ وقوة إدراك»[9].

ويقول معلّقاً على رواية أبي الفرج الاصبهاني السالفة الذكر:

«نقول في هذه الرواية إن صحت إنها من نوع الحدس والتخمين... إنّا نميل الى ذلك، ويكون هذا من قبيل الفراسة الصادقة»[10].

ويقول بعد ذلك مؤكداً قوله السابق:

«إن صحت الرواية ولعله كذلك، والله عنده علم الغيب، وعلى ذلك لا يكون ما يقوله علماً يدّعيه، ولكنه قول يلقيه....

(٩) الامام الصادق: ٨٤.
(١٠) الامام الصادق: ٥١.

والكرامة امور تجري على يد الشخص الذي أكرمه الله؛ أو أقوال تجري على لسانه من غير ادعاء علم الغيب والتحدي به، إذ هو ليس عالماً، ولكنه أشبه ما يكون بالمصادفة المكرّرة»[11].

والحق الثابت الصحيح الذي ليس من حقّ غيره ولا من صحيح سواه أن ما ذكره الامام الصادق (ع) في تلك الجلسة انما هو إخبار بالغيب قطعاً وبلا مواربة أو تردد، وليس في ذلك ما يثير الغرابة والعجب أو ينطوي على المبالغة والمغالاة، لأنه الغيب المأثور عن أصدق الواقفين عليه والمخبرين به؛ وهو نبي الله الأعظم ورسوله الأكرم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، وقد دوّنه كما سمعه منه أخوه الصادق المصدّق علي بن أبي طالب(*)، ثم تداول ذلك المدوّن أولاده الأئمة الثقات الصادقون سلام الله عليهم أجمعين.

أما الحدس والفراسة والمصادفة والتخمين ـ وقد تكرر ورودها في كلام الشيخ أبي زهرة ـ فلا علاقة لها بما نحن فيه من علم الغيب النبوي؛ بل لادخل لها في هذا الموضوع في قليل ولا كثير، لأنها مفردات لفظية قد تصلح للاستعمال أثناء الحديث عن

(١١) الامام الصادق: ٥٢.
(*) يأتي مزيد من الحديث والبحث في كتاب علي ـ ع ـ المشار اليه ـ مع ذكر الاحاديث النبوية في هذا الشأن ـ، في خلال الفصل الثاني (تراث الامامة) فليراجعه من شاء الوقوف على التفصيل.

الأذكياء والعباقرة من بني البشر، ولكنها لا تنسجم مع ما يفرضه جوهر الدين وأصل الشرع؛ من الايمان المطلق بعلم الأنبياء والمرسلين بالغيب الذي يشاء الله تعالى إطلاعهم عليه، كما نصّ القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

★★★

ومهما يكن من أمرٍ؛ فان تحرك الجماهير المعادي لبني امية قد استمرّ في حماسه واندفاعه، بل أخذ يتصاعد في غليانه وعنفوانه، ولم يؤثّر فيه قيام الامويين بقتل ابراهيم بن محمد العباسي، لولا الصدمة التي أصابت القائد البارز أبا سلمة الخلال لما علم ان ابراهيم المذكور قد عهد بالأمر من بعده لأخيه السفاح دون غيره من الهاشميين الذين كان فيهم مَنْ هو أولى بذلك في رأيه من أبي العباس في جميع جهاته وصفاته.

وتقول الرواية التاريخية ـ كما أوردها المسعودي ـ: ان أبا سلمة لما بلغه مقتل ابراهيم وعهده لأبي العباس السفاح «خاف انتقاض الأمر وفساده عليه، فبعث بمحمد بن عبدالرحمن بن أسلم مولىً لرسول الله (ص)، وكتب معه كتابين على نسخة واحدة: الى أبي عبدالله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، والى أبي محمد عبدالله بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ، يدعو كلّ واحدٍ منهما الى الشخوص اليه ليصرف الدعوة اليه، ويجتهد في

بيعة أهل خراسان له، وقال للرسول: العجل العجل، فلا تكونَنَّ كوافد عادٍ».

«فقدم محمد بن عبدالرحمن المدينة على أبي عبدالله جعفر بن محمد، فلقيه ليلاً، فلما وصل اليه أعلمه أنه رسول أبي سلمة. ودفع اليه كتابه، فقال له أبو عبدالله: وما أنا وأبو سلمة!؛ وأبو سلمة شيعة لغيري. قال له: اني رسول، فتقرأ كتابه وتجيبه بما رأيت. فدعا أبو عبدالله بسراجٍ؛ ثم أخذ كتاب أبي سلمة فوضعه على السراج حتى احترق، وقال للرسول: عرّف صاحبك بما رأيت، ثم أنشأ يقول «تمثلاً بقول الكميت بن زيد:

أيا موقداً نارا لغيرك ضوؤها ... وياحاطباً في غير حبلك تحطبُ

فخرج الرسول من عنده».

أمّا عبدالله بن الحسن فانه لما تسلّم الكتاب «قبّله وقرأه وابتهج، فلما كان غد ذلك اليوم... ركب عبدالله حتى أتى منزل أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق... فقال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني الى ما أقبله، وقد قدمَ عليه شيعتنا من أهل خراسان. فقال له أبو عبدالله: يا أبا محمد؛ ومتى كان أهل خراسان شيعةً لك؟!... فنازعه عبدُالله بن الحسن الكلام، الى أن قال: انما يريد القوم ابني محمداً لأنه مهدي هذه الامة. فقال أبو عبدالله جعفر: والله ما هو مهدي هذه الامة؛ وإن شهر سيفه ليُقتلنَّ. فنازعه عبدُالله القول حتى قال له: والله ما

يمنعك من ذلك الا الحسد. فقال أبو عبدالله: والله ما هذا الا نصحٌ مني لك، ولقد كتب إليَّ أبو سلمة بمثل ما كتب به اليك فلم يجد رسوله عندي ما وجد عندك، ولقد أحرقتُ كتابه من قبل أن أقرأه. فانصرف عبدالله من عند جعفر مغضَباً»[12].

وجاء في نصّ رواية ابن الطقطقي لرسالة أبي سلمة أنه أرسلها الى ثلاثة: هم «جعفر بن محمد الصادق ـ ع ـ وعبدالله المحض بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ـ ع ـ وعمر الأشرف بن زين العابدين ـ ع ـ . . . وقال للرسول: اقصد أولاً جعفر بن محمد الصادق، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين . . . فذهب الرسول الى جعفر بن محمد ـ ع ـ أولاً ودفع اليه كتاب أبي سلمة» [فكان الجواب كما تقدم في نصّ المسعودي].

«ثم مضى الرسول الى عبدالله المحض ودفع اليه الكتاب، فقرأه وقبّله، وركب في الحال الى الصادق ـ ع ـ وقال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني فيه الى الخلافة، قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان. فقال له الصادق ـ ع ـ: ومتى صار أهل خراسان شيعتك؟!، أأنت وجّهتَ اليهم أبا مسلم؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته؟ فكيف يكونون شيعتك

(١٢) مروج الذهب: ٣/١٨٣ ـ ١٨٤.

وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك. فقال عبدالله: كان هذا الكلام منك سيء. فقال الصادق: قد علمتُ ما يرتجيه النصح على نفسي لكل مسلم؛ فكيف ادّخره عنك! فلا تُمَنِّ نفسك الأباطيل، فان هذه الدولة ستتم لهؤلاء، وقد جاءني مثلُ الكتاب الذي جاءك. فانصرف عبدالله من عنده غير راضٍ».

«وأما عمر بن زين العابدين فانه ردَّ الكتاب وقال: أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه»[13].

وهكذا باءت محاولة أبي سلمة في استدراج الامام الصادق لِ قيادة الثورة والمشاركة في العمل السياسي الفعّال لاقامة كيان الدولة الجديدة؛ بالفشل الذريع، إذ قابل تلك الدعوة ـ وربما جاءه مثلها من أبي مسلم أيضاً[14] ـ بالرفض المطلق والإباء الشديد.

ويعلّل الكاتب عبدالرحمن الشرقاوي سلبية الامام تجاه الثورات ودعوات الخروج على السلاطين فيقول:

«كان الامام جعفر منذ رأى بطش الحكام بآل البيت وأنصارهم وبالباحثين عن الحقيقة وبمقاومي الاستبداد، كان قد أخذ بمبدأ التقية فلم يجهر بالعداء لبني امية؛ اتقاء شرِّهم وحذر

(١٣) تاريخ الفخري: ١٣٢، ومضمونه في الوزراء والكتاب: ٥٧ وينابيع المودة: ٣٨١.

(١٤) المناقب: ٢/٣٠٩ وينابيع المودة: ٣٨١.

الفتنة . . فآثر أن يهب نفسه للعلم؛ وألاّ يفكّر في النهوض والانقضاض على السلطان الجائر، حقناً لدماء المسلمين. ورأى أن خير ما يقاوم به البغي هو الكلمة المضيئة تنير للناس طريق الهداية، وتزكيهم، وتحركهم الى الدفاع عن حقوق الانسان التي شرعها الاسلام؛ والى حماية مصالح الامة التي هي هدف الشريعة».

«والتقية ألاّ يجهر المرء بما يعتقد اتقاءً للأذى أو حتى تتحسن الظروف. والأصل في التقية هو قول الله تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومَنْ يفعل ذلك فليس من الله في شيء الاّ أن تتّقوا منهم تُقاة﴾[15]».

ويزيد الشيخ محمد أبو زهرة موضوع التقية شرحاً وايضاحاً فيقول:

«ان التقية التي كان يدعو اليها الامام الصادق قد دفع اليها أمران:

«أحدهما: دفع الأذى ومنع المخاطر التي يتعرض لها المؤمن من غير قوة دافعة مانعة، فيكون الأذى حيث لاجدوى، وبذلك تتلاقى التقية مع الجهاد. فالجهاد مع أعداء الاسلام حيث يكون واجباً لنصر الاسلام، وحيث يكون الاستعداد قد تمّ والأهبة قد أُخذت، كما فعل النبي (ص) بعد الهجرة عندما صار للاسلام

(١٥) شخصيات إسلامية: ٣٩ و٤٤.

شوكة وقوة. والتقية حيث يكون اليقين بأن الانتقاض لايجدي . . لأن الخروج عندئذ ضرره أكبر من نفعه . . إذ يُلقى من خرج الى التهلكة وتكون الفتنة والفساد؛ ويكون الظلم والشرُّ المستطير؛ إذ يقوى الظالم ويستمكن. وبهذا التقرير يكون للجهاد موضع وللتقية مثله، وكلاهما يكون لحماية الحق».

«الأمر الثاني: الذي دفع الى التقية هو ما رآه من استعلاء الباطل اذا أعلن الحق، وقد ظهر ذلك في مقتل الحسين - رض -؛ وفي مقتل زيد - رض -؛ وفي مقتل الأخوين الطاهرين محمد النفس الزكية وابراهيم ولدي عبدالله بن الحسن ابن الحسن».

«ولاشك ان التقية كان لها موضعها في عصر الصادق وما جاء بعده، وهي كانت مصلحة للشيعة، وفيها مصلحة للاسلام، لأنها كانت مانعة من الفتن»[16].

★★★

وعلى كل حال. فقد أطبق قادة الأقاليم بجيوشهم الجرّارة على فلول الحكم الاموي المفكّك؛ فانهزمت أمامهم لاتلوي على شيء، وسقط عرش الطغاة من بني سفيان ومروان كما تسقط في المعتاد عروش الظلمة الجائرين، ونجحت المسيرة الطويلة للثوار في بلوغ الغاية المرجوّة والهدف المطلوب، حيث أسفرت الدعوة

(١٦) الامام الصادق: ٢٤٣ - ٢٤٤.

العباسية ـ بعد سنوات الكفاح المرير ـ عن عهدٍ جديد أصبح فيه أبو العباس السفاح ربَّ السلطان والصولجان.

وهكذا انتهى العصر الاموي، «وجاء عصر جديد يتطلع فيه الناس الى الحرية والنظافة والطهارة والعدل، فاذا بالمنافقين الذين زيتوا الاستبداد لبعض الامويين وشرعوا لهم العدوان والطغيان يحيطون بأبي العباس مؤسس الدولة الجديدة»[١٧].

ومع أن إقامة الامام الصادق (ع) كانت بالمدينة المنورة، فقد زار العراق عدة مرات أيام الحكم العباسي، وروى الباحثون ومنهم الشيخ محمد أبو زهرة: «أن أول قدمةٍ قدمها الى العراق كانت في عهد السفّاح. . . . وقالوا: انه في هذه القدمة عرف قبر الامام علي ـ كرم الله وجهه ـ بالنجف. . . . وان الأخبار الواردة في هذا تفيد أن موضع القبر كان معلوماً عند آل البيت»[١٨].

«وقد عقد وهو في العراق عدة مناظرات كان يناظر بها أهل الفرق المختلفة، وكان كثير من الناس يحضرون هذه المناظرات، لأن القلوب كانت تقبل عليه، وأفئدة المؤمنين تصغي اليه»[١٩].

---

(١٧) شخصيات اسلامية: ٤٣.

(١٨) الامام الصادق: ٦٠ ـ ٦١. ويراجع في تفاصيل هذه الزيارة: الكافي: ٦/٤٤٩ و٨/٣٧٩ ـ ٣٨٠ والمناقب: ٢/٣١٧ وبحار الأنوار: ٤٧/٤٤ و٤٥ و٩٣ ـ ٩٤.

(١٩) الامام الصادق: ٦١. ويراجع في بعض ذلك: بحار الأنوار: ٤٧/٢٥٢ ـ ٢٢٣.

وتميزت سنوات حكم السفاح التي لم تمتد طويلاً: بالهدوء والمهادنة بينه وبين الامام الصادق(ع) في أعمّها الأغلب، وسواء أكان قدومه الى العراق باختياره أو باستقدام من أبي العباس ـ كما هو الأرجح ـ فلم يحدث في لقاءات «الحيرة» تلك مايستحق التسجيل من سوء التصرف ومظاهر الشر والوعيد.

ولكن المؤرخين رووا: ان داود بن علي بن العباس لما ولي امر المدينة المنورة في سنة ١٣٢هـ بادر الى القبض على المعلّى بن خنيس مولى جعفر بن محمد ـ ع ـ «وسأله عن أصحاب أبي عبدالله وسأله أن يكتبهم له، فقال: ما أعرف من أصحابه أحداً؛ وانما أنا رجل أختلف في حوائجه. قال: تكتمني؛ أمَا انك إن كتمتني قتلتُك. فقال له المعلّى: أبا لقتل تهدِّدني! لو كانوا تحت قدمي مارفعتُ قدمي»، فقتله وصلبه وأخذ ماله، «فدخل عليه جعفر ـ ع ـ وهو يجر رداءه فقال له: قتلتَ مولاي وأخذتَ مالي، اما علمتَ ان الرجل ينام على الثكل ولا ينام على الحرب، ما والله لأدعونَّ الله عليك. فقال له: أتهدِّدنا بدعائك؛ كالمستهزىء بقوله. فرجع أبو عبدالله ـ ع ـ الى داره. . . حتى اذا كان السحر سُمِع وهو يقول في مناجاته: ياذا القوة القوية وياذا المحال الشديد وياذا العزة التي كلُّ خلقك لها ذليل، اكفني هذا الطاغية وانتقم لي منه. فما كان الاّ ساعة حتى ارتفعت الأصوات

بالصياح، وقيل: مات داود بن علي الساعة، فجأة[٢٠].

ثم سرعان ما مات الخليفة في سنة ١٣٦ هـ، ومات معه سياسة المهادنة التي كانت قائمة بين الحكم وبني علي كافة، وانطوت صفحة المواجهة الموقتة في حسم الأحداث الكبرى التي وقعت في عهد المنصور.

★ ★ ★

وانتقل العرش بمرت السفاح الى أبي جعفر المنصور، فأصبح حاكم الامة وصاحب السلطة والمسؤول الأوحد عن إدارة الدولة وشؤون الناس.

ويقول الاستاذ عبدالرحمن الشرقاوي وهو يتحدث عن هذه الحقبة:

إن المنافقين قد أحاطوا بالخليفة الثاني في العصر الجديد فأوهموه «أنه فوق الحساب لأنه ظل الله في الأرض» حتى لقد جعلوا المنصور يحمل الناس على تقبيل الأرض بين يديه!.

ثم وصل فجور هؤلاء المرتزقة الى آخر مدى، فوضعوا الأحاديث النبويه خدمة الطبقة الحاكمة، حتى الأحاديث الشريفه لم تسلم من تزييفهم».

(٢٠) الحلل: ٢/٥١٣ والارشاد: ٢٩١ ـ ٢٩٢ والمناقب: ٢/٣٠٦ ـ ٣٠٧ و٣١٠ و٣١١ والفصول المهمة: ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ومصباح الأنوار: ٤٧/٩٧، ١١٠ و١٥١ و٢٠٩ ونور الأبصار: ١٣٤

«وعلى الرغم من كل هذه المظالم، وعلى الرغم مما عاناه الامام جعفر من الام وهو يعيش محنة خيبة الأمل في النظام الجديد؛ بأنه ظل أخذاً بالتقية»[٢١]. ولكنه لم يسلم مع ذلك من حقد المنصور وغضبه المختلف الألوان.

ويوعز الاستاذ الشرقاوي ذلك الغيظ المتفجر والغضب الملتهب في نفس أبي جعفر؛ الى ماظهر من الامام من صدق وصفاء في التعامل مع الحياة والناس والأشياء، ولكل هذه السماحة والعذوبة والرقة والتسامح، ولإشراقه الروحي الرائع وذكائه المتوقد الخارق، ولجسارته في الدفاع عن الحق وفوته على الباطل، ولكل ما تمتع به من طهارة وسموّ وخلق عظيم. فالتفّ الناس على اختلاف آرائهم حول الامام الصادق جعفر بن محمد، وكما كان حكام بني امية يراقبون التفاف الناس حوله يفزع؛ أخذ الخليفة العباسي المنصور يراقب الامام جعفراً متوجساً من جيشان العواطف نحوه واعجاب الناس به»[٢٢].

ثم قال موجزاً الموقف كله:

«كان استبداد المنصور قد استشرى، وكما فعل الحكام الامويون من قبل، بطش المنصور بكل من يخالف رأيه، ووجّه بطشه الى آل البيت. . . . واتهم جعفر بن محمد بأنه يحرّض

(٢١) شخصيات اسلامية: ٤٣ ـ ٤٤.

(٢٢) و(٢٣) شخصيات اسلامية: ٤٦ و٤٨.

منه؛ وبأنه يطمع في الخلافة، على الرغم من أنه يعلم ان الامام لاطمع له في الملك»[٢٤].

أما الشيخ محمد أبو زهرة فذهب الى أن الامام على الرغم من كونه قد ترك السياسة وفنها؛ ولم يعلن رأيه في أحداثها بصريح القول «فقد ابتلي بالاتهام أو التظنن من أبي جعفر المنصور»[٢٥].

وقال في بيان ذلك:

«أبو جعفر المنصور كان يتصور أنه (أي الامام الصادق) ناقم على حكم العباسيين. ولذلك كان يتشكك في أمره دائماً، وكان يتوجس منه خيفة كلما رأى الناس يقدّرونه وكلما ظن أن الشيعة في الأقاليم يراسلونه. وألسنة السوء تؤوّل كل تصرف للامام الصادق بما يزيد الشك قوة. . . . ولايكتفي المنصور بما تشرع به السنة الملق والنفاق. . . بل كان يبث العيون حوله يتعرفون أخباره. . . . وكل هذه الهواجس التي تدفع الى الشك. . . هي في طبيعة كل متغلّب بحكم. . . . ولما بلغ وسواس الشك الى درجة الظن الغالب؛ دعاه اليه منافشاً له في شكوكه، وتكررت الدعوة كلما تفاقم الشك»[٢٦].

ثم يقول الشيخ أبو زهرة معلّقاً على هذه الدعوات وتكرارها:

«والظاهر أنه (أي الامام) كان غير ممكّن فيها من الاتصال

(٢٤) الامام الصادق: ٥٧.

(٢٥) و(٢٦) الامام الصادق: ٤٤ و٦٢.

بالناس، لأن أبا جعفر كان يخشى فتنة الناس به وحلاوة حديثه وقوة مهابته، فتلك كلها كانت عناصر من شأنها أن تفزعه من اتصاله بالناس»[٢٧].

ويبدو من النصوص التاريخية ان بعض تلك الدعوات أو الاستدعاءات كان يوم استقرار المنصور في الحيرة، وبعضاً كان في الهاشمية، وأنه قد عزم في بعضها على قتله ولكنه لم يفعل، كما ورد النص على إشخاصه الى بغداد أيضاً[٢٨].

وأخرج الذهبي بسنده عن أبي حنيفة إمام المذهب وقد «سُئل: مَنْ أفقه مَنْ رأيت؟ قال: ما رأيتُ أحداً أفقه من جعفر ابن محمد، ولما أقدمه المنصور الحيرة بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة؛ إن الناس قد فُتنوا بجعفر بن محمد فهيّئ له من مسائلك الصعاب. فهيّأت له أربعين مسألة، ثم أتيتُ أبا جعفر وجعفر جالس عن يمينه، فلما بصرتُ بهما دخلني لجعفر من الهيبة ما لايدخلني لأبي جعفر، فسلّمتُ، وأذن لي فجلستُ. ثم التفت الى جعفر فقال: يا أبا عبدالله؛ تعرف هذا؟. قال: نعم هذا أبو حنيفة. . . . ثم قال: يا أبا حنيفة؛ هات من مسائلك تسأل أبا عبدالله، فابتدأتُ أسألهُ. فكان يقول في المسألة: أنتم تقولون فيها كذا وكذا، وأهل المدينة يقولون كذا وكذا، ونحن نقول كذا

(٢٧) يراجع في ذلك: الكافي: ٦/٢٦٨ و٤٤٥ والمناقب: ٢/٣٢٠ وبحار الأنوار: ٤٧/١٣٩ و١٦٢ ـ ١٦٤ و١٦٧ و١٦٩ ـ ١٧٥ و١٧٨ و١٨٠ و١٨٣ و١٩٠ ـ ١٩١ و١٩٣ ـ ٢٠٠ و٢٠٢ ـ ٢٠٤ و٢٠٦ و٢٠٨.

وكذا. فربما تابعنا وربما تابع أهل المدينة وربما خالفنا جميعاً. حتى أتيتُ على أربعين مسألة»[٢٨].

ويروي الرواة ان المنصور في بداية أيام حكمه، أراد اختبار العلويين، فأرسل مالاً مع رسولٍ الى المدينة المنورة وقال له: «إأتِ عبدالله بن الحسن بن الحسن وعدةً من أهل بيته فيهم جعفر بن محمد؛ فقل لهم: اني رجل غريب من أهل خراسان ربها شيعة من شيعتكم وجهوا اليكم بهذا المال، وادفع الى كل واحدٍ منهم على هذا الشرط كذا وكذا، فاذا قبضوا المال فقل: اني رسول؛ واحبُّ أن يكون معي خطوطكم بقبضكم ما قبضتم. فأخذ المال وأتى المدينة، ثم رجع الى أبي الدوانيق (أبي المنصور)... فقال له أبو الدوانيق: ماوراءك؟، قال: اتيتُ القوم وهذه خطوطهم بقبضهم المال؛ خلا جعفر بن محمد، فاني أتيتهُ وهو يصلي في مسجد الرسول (ص)، فجلستُ خلفه وقلتُ: حتى ينصرف فأذكر له ماذكرتُ لأصحابه، فعجل وانصرف ثم التفت إليَّ فقال: ياهذا؛ اتَّقِ الله ولاتغرّ أهل بيت محمد فانهم قريبو العهد بدولة بني مروان، وكلهم محتاج»[٢٩].

وهكذا باءت بالفشل الذريع جميع محاولات المنصور في «الاختبار المالي» وفي «الامتحان الفقهي» وفي نظائر هذا وذاك مما

(٢٨) سير أعلام النبلاء: ٦/٢٥٧ ـ ٢٥٨ وبحار الأنوار: ٤٧/٢١٧ ـ ٢١٨.
(٢٩) الكافي: ١/٤٧٥ والمناقب: ٢/٣٠٢.

لانعلمه لاهمال الرواة له، بل لم تسفر هذه الأساليب الملتوية ـ على تنوعها واختلافها ـ عن حصول الحاكم على مستمسك يصلح للاشهار في وجه الامام الصادق (ع)، فبقيت نار الحقد في نفس الخليفة متوقدة الضرام مشتعلة اللهيب.

وفي سنة ١٤٥هـ أعلن محمد بن عبدالله النفس الزكية ثورته على المنصور، متخذاً من المدينة المنورة مقراً ومنطلقاً لها؛ ومن الجماهير الغاضبة من انحرافات الحكم الجديد وسيئاته جيشاً وأعواناً.

ولكن الامام الصادق (ع) لم ير في ذلك وجهاً شرعياً يسوّغ له المشاركة والاسهام في هذا الخروج، ليقينه بأنه بمثابة الانتحار الجماعي لهؤلاء الخارجين، إذ لن يترتب عليه أي نفع ديني منصوّر واية مصلحة اسلامية ذات شان؛ كاسقاط النظام القائم الفاسد مثلاً أو تصحيح الأوضاع المتردّية السائدة، فلم يكن منه الا أن يغادر المدينة خارجاً الى مزرعته بالفرع، وأن يظل مقيماً هناك معتزلاً الفئتين حتى قُتِل محمد ومن معه؛ وانتهت المعركة نهايتها المتوقعة، فرجع الى المدينة[٣٠].

غير أن هذه السلبية من الامام تجاه محمد ونهضته لم تطفئ غيظ المنصور عليه؛ ولم تخفف من غليان الحقد في نفسه الشريرة الأمّارة بالسوء، خصوصاً عندما علم ان الامام لم يزر عيسى بن

(٣٠) تذكرة الخواص: ٣٥٧ والفصول المهمة: ٢٠٩ وبحار الأنوار: ٤٧/.

موسى قائد الجيش بعد الفوز ولم يلقه اثر النصر!!، وكاد المنصور قد كتب الى قائده قائلاً: «مَنْ لقيك من آل أبي طالب فاكتب إليَّ باسمه، ومَنْ لم يلقك فاقبض ماله»، وقد قبض عيسى تنفيذاً لهذه الأوامر عين أبي زياد العائدة للامام وصادرها؛ بدعوى أن جعفر بن محمد قد تغيَّب عنه ولم يلقه[٣١].

ثم استقدم المنصور الامام الصادق (ع) الى لقائه، ونكتفي هنا برواية ما حدَّثنا به الامام وهو يشرح مادار في هذا اللقاء، فقال:

لما حضرتُ الى أبي جعفر المنصور بعد قتل محمد بن عبدالله ابن الحسن «نهرني وكلَّمني بكلام غليظ، ثم قال لي: ياجعفر، قد علمتَ بفعل محمد بن عبدالله الذي يسمونه النفس الزكية ومانزل به، وانما أنتظر الآن أن يتحرَّك منكم أحدٌ فألحق الصغير بالكبير».

فقال له الامام: «حدَّثني أبي محمد بن علي عن أبيه عن الحسين عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ـ ص ـ قال: ان الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين فيصله الله تعالى الى ثلاث وثلاثين سنة، وان الرجل ليقطع رحمه وقد بقي من عمره ثلاث وثلاثون سنة فينزلها الله تعالى الى ثلاث سنين».

(٣١) تاريخ الطبري: ٧/٥٧٩.

«قال: فقال لي: الله عليك سمعتَ هذا من أبيك؟ فقلتُ: واللهِ لقد سمعتُها. فردَّدها عليَّ ثلاثاً، ثم قال: انصرف»[٣٢].

ويروي الطبري وأبو الفرج الاصبهاني: ان الامام قال للمنصور في هذا اللقاء:

«اردد عليَّ قطيعتي عين أبي زياد آكل من سعفها. قال: إياي تكلِّم بهذا الكلام، واللهِ لأزهقنَّ نفسك. قال: لا تعجل عليَّ، قد بلغتُ ثلاثاً وستين، وفيها مات أبي وجدّي»[٣٣].

ثم تكررت هذه المأساة بعد خروج ابراهيم بن عبدالله بن الحسن وشهادته بباخمرا، فقد تحرك الضغن المتراكم في نفس المنصور ضد كل العلويين، وجاء في الرواية عن الامام الصادق قوله:

«لما قُتِل ابراهيم.. وحُشِرنا من المدينة فلم يُترَك فيها منّا محتلم، حتى قدمنا الكوفة فمكثنا فيها شهراً نتوقع فيها القتل، ثم خرج الينا الربيع الحاجب فقال: أين هؤلاء العلوية؟ أدخلوا على أمير المؤمنين رجلين منكم من ذوي الحجى. قال: فدخلنا اليه أنا وحسن بن زيد، فلما صرتُ بين يديه قال لي: أنت الذي تعلم الغيب؟ قلتُ: لا يعلم الغيب الا الله. قال: أنت الذي يُجبى اليك هذا الخراج؟ قلتُ: اليك يُجبى... قال: أتدرون لِمَ

(٣٢) الفصول المهمة: ٢٠٩ ونور الأبصار: ١٣٤.
(٣٣) تاريخ الطبري: ٧/٦٠٣ ومقاتل الطالبين: ٢٧٣.

دعوتكم؟ قلتُ: لا. قال: أردتُ أن أهدم رباعكم وأنوّر قليبكم وأعقر نخلكم، وأُنزلكم بالسراة لايقربكم أحدٌ من أهل الحجاز وأهل العراق فانهم لكم مفسدة».

قال الامام الصادق: «فقلتُ: ان سليمان أُعطيَ فشكر، وان أيوب ابتُلي فصبر، وان يوسف ظُلِم فغفر، وأنت من ذلك النسل. فتبسم وقال: أعِدْ عليَّ، فأعدتُ. فقال: مثلك فليكن زعيم القوم، وقد عفوتُ عنكم»[34].

وفي سنة ١٤٧هـ ـ أي في السنة قبل الأخيرة من حياة الامام الصادق (ع) ـ حجّ المنصور، ويروي المؤرخون عن عبدالله بن الفضل بن الربيع عن أبيه: أنه لما قدم المدينة قال للربيع: ابعث الى جعفر بن محمد مَنْ يأتينا به سعياً، فتاني الله إن لم أقتله. فتغافل الربيع عنه فأعاد عليه في اليوم الثاني وأغلظ له في القول، فارسل اليه الربيع... ودخل به على المنصور، فلما رآه المنصور أغلظ له بالقول فقال: ياعدوّ الله: اتخذك أهلُ العراق إماماً يجبون اليك زكاة أموالهم، تلحد في سلطاني وتبغيني الغوائل، قتلني الله إن لم أقتلك. فقال أبو عبدالله: والله ما فعلتُ ولا اردتُ، وإن كان بلغك فمن كاذب، ولو كنتُ فعلتُ فقد ظُلِم يوسف فغفر، وابتُليَ أيوب فصبر، وأُعطي سليمان فشكر،

(٣٤) مقاتل الطالبيين: ٣٥٠ ـ ٣٥١ وبحار الأنوار: ٤٧/ ١٨٧ و٢١١، ومختصر منه في نثر الدرر: ١/ ٣٥١ وزهر الآداب: ١/ ١٢٣، والبرهان هذه الحادثة في النجوم الزاهرة: ٢/ ٦ ـ ٧.

فهؤلاء أنبياء الله، واليهم يرجع نسبك؛ ولك فيهم اسوة حسنة. فقال المنصور: أجل لقد صدقتَ يا أبا عبدالله ارتفع إليَّ هاهنا عندي. ثم قال له: يا أبا عبدالله؛ ان فلاناً الفلاني أخبرني عنك بما ذكرتُ، فقال: أحضِرْه ليوافقني على ذلك. فأُحضر الرجل الذي سعى به، فقال له المنصور: أحقاً ما حكيت لي عن جعفر؟، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، فقال له أبو عبدالله ـ ع ـ: فاستحلفه على ذلك، فقال له المنصور: أتحلف؟ قال: نعم؛ وابتدأ باليمين. فقال له أبو عبدالله: دعني أحلِّفه أنا، فقال له: افعلْ، فقال أبو عبدالله ـ ع ـ للساعي: قل برئت من حول الله وقوته والتجأتُ الى حولي وقوتي لقد فعل كذا وكذا. فامتنع الرجل، فنظر اليه المنصور منكراً، فحلف بها، فما كان بأسرع من أن ضرب برجله الأرض وقضى مرتاً مكانه في المجلس. فقال المنصور: جروا برجله وأخرجوه... ثم قال: لا عليك يا أبا عبدالله؛ أنت البري، الساحة، السليم الناحية، المأمون الغائلة»[35].

وهكذا كانت لقاءات الامام بالمنصور قائمة على سوء ظن

(٣٥) اقتبسنا النصّ من: الارشاد: ٢٩٠ ـ ٢٩١ والدر النظيم: ٢/ ١٥٩ ـ ١٦٠ و٣/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥ وصفة الصفوة: ٢/ ٩٦ ـ ٩٧ وكفاية الطالب: ٣٠٧ ـ ٣٠٨ وينابيع المودة: ٣٥٣ ـ ٣٥٤ ومطالب السؤول: ٢/ ٥٨ ـ ٥٩ وسير أعلام النبلاء: ٦/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧ والفصول المهمة: ٢٠٧ ـ ٢٠٨ والصواعق المحرقة: ١٢٠ وبحار الأنوار: ٤٧/ ٨٢؛ ونور الأبصار: ١٣٣ ـ ١٣٤.

الخليفة وفساد طويته، كما دلَّ عليه ما تفوَّه به من عبارات الاتهام والوعيد، وألفاظ التجريح والتهديد؛ والخروج على كل أعراف الأدب والخلق وحسن السلوك.

ولعل من أطرف ما حدث في بعض تلك اللقاءات ما رواه أحمد بن عمرو بن المقدام الرازي قال:

«وقع الذباب على المنصور فذبَّه عنه، فعاد فذبَّه، فعاد حتى أضجره. فدخل جعفر بن محمد عليه، فقال له المنصور: يا أبا عبدالله؛ لِمَ خلق اللهُ الذبابَ؟، قال: ليُذلَّ به الجبابرة»[36].

ويروي بعض الرواة: ان المنصور كتب يوماً الى الامام الصادق (ع) وقد بعد عهدُ اللقاء بينهما:

«لِمَ لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس؟، فأجابه:

ليس لنا ما نخافك من أجله؛ ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له؛ ولا أنت في نعمةٍ فنهنِّئك، ولا تراها نقمة فنعزِّيك بها، فما نصنع عندك؟».

قال الراوي: «فكتب اليه: تصحبنا لتنصحنا».

«فأجابه: مَنْ أراد الدنيا لاينصحك، ومن أراد الآخرة لايصحبك».

(٣٦) حلية الأولياء: ٣/١٩٨ ـ واللفظ منها ـ والمناقب: ٢/٣٢٧ وصفة الصفوة: ٢/٩٦ ومطالب السؤول: ٢/٥٧ ـ ٥٨ وتذكرة الخواص: ٣٥٣ وسير أعلام النبلاء: ٦/٢٦٤ والفصول المهمة: ٢٠٦ وبحار الأنوار: ٤٧/١٦٦ ونور الأبصار: ١٣٥.

«فقال المنصور: والله لقد مَيَّز عندي منازل الناس؛ مَنْ يريد الدنيا ممن يريد الآخرة، وانه ممن يريد الآخرة لا الدنيا»[37].

★★★

وبقيت نار الحقد تأكل قلب المنصور فتحمله على التأجيج الدائم للمجابهة بينه وبين الامام، وظل التوتر العنيف طابعاً ثابتاً للروابط بينهما طيلة تلك السنين، ثم شهر الخليفة سيف الارهاب والتنكيل بعد انتصاره على محمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم، حتى أنه أمر ـ كما روى السيد أمير علي الهندي ـ «بقتل كثير من أشراف البصرة الذين كانوا قد آزروا دعوة العلويين؛ وهدم بيوتهم؛ وخرب بساتينهم، كما صادر أملاك أبناء الحسن والحسين، والغى الامتيازات التي كان أهل المدينة يتمتعون بها... وهدَّد الامام جعفراً الصادق بالقتل»[38].

وعلى كل حال؛ فان المنصور لم يعد يطيق الصبر والترقب وهو يرى الامام ملء العيون والأسماع والأفئدة، مع أنه كان يعلم بتجاربه الخاصة ـ كما يقول الباحث عبدالرحمن الشرقاوي ـ «ان الامام جعفر بن محمد عازف عن الاشتغال بالسياسة، وكان يعرف ان الامام رفض إهابة الشيعة به أن ينهض؛ ورفض إلحاحهم بالبيعة، ولكن المنصور مع ذلك ما كان ليستريح

(٣٧) بحار الأنوار: ٤٧/١٨٤ ـ ١٨٥.
(٣٨) مختصر تاريخ العرب: ١٩٢ ـ ١٩٣.

لالتفاف الناس حول الصادق في كل مكان؛ في المدينة حيث يقيم؛ وفي العراق حيث يلمُّ، فأخذ يترصد به على مرّ الوقت ويضيّق عليه على امتداد السنين، «ولكن الامام جعفراً ظل يناضل بالكلمة دفاعاً عن كل ارائه؛ وعن حرية العقل والارادة، وشرف المثقفين»، وكان ما يغيظ المنصور حقاً هو فكر الامام الصادق والتفاف الناس حوله[39].

وأخيراً؛ لم يجد الطاغية بدّاً من التخلص من الامام كيف كان، ولم يجد امامه طريقاً الى تحقيق ذلك الا السمّ، وهكذا كان[40].

«في شوال[41] من سنة ١٤٨ هـ[42]، رجعت نفس الامام الى ربها راضية مرضية، فارتجت أرجاء المدينة المنورة عند سماع النبأ،

---

(٣٩) شخصيات اسلامية: ٤٧ ـ ٤٨.

(٤٠) [illegible] وفاته ـ ع ـ يتسم على نحو الجزم لدى بعضهم والقيل والاحتمال عند بعض آخرين: مروج الذهب: ٣/٢١٢ والمناقب: ٢/٣٤٩ وشرح نهج البلاغة: ١٥/١٣٨ ونثره الجواهر: ٢٠٦ والفصول المهمة: ٢١٢ والصواعق المحرقة: ١٢١ وبحار الأنوار: ٤٧/١ و٢ و٦٨٢ ونور الأبصار: ١٣٥ واسعاف الراغبين: ٢٠٣ وعمدة الزائر: ٣٠٥ وعقيدة الشيعة: ١٤٨.

وسبب القول بتسميم الامام الى بعض الامامية خاصة ـ كما في الامام الصادق: ١٣ ـ يقدما الوقوف على أسماء مؤلفي المصادر المتقدمة وفيهم من لا يجهل أمره من الحفاظ المشاهير.

(٤١) ورد النص على شوال في الكافي: ١/٤٧٢ و٤٧٥ ومروج الذهب: ٣/٢١٢ والارشاد: ٢٨٩ وتهذيب الطوسي: ٦/٧٨ والمناقب: ٢/٣٤٩ وكفاية الطالب: ٣٠٩ ووفيات الأعيان: ١/٢٩١ والفصول المهمة: ٢١٢ والأئمة الاثنا عشر: [illegible]

وشاركت الجماهير المسلمة المفجوعة في تشييع ذلك الامام الأوحد، ودُفن جسده الطاهر بالبقيع السعيد، حيث دفن أبوه

= وبحار الأنوار: ١/٤٧ و٢ وجواهر الكلام: ٢٠/٨٨ وينابيع المودة: ٣٨٠ ونور الأبصار: ١٣٥ وعمدة الزائر: ٣٠٥.

أما رواية منتصف رجب ـ كما في بعض المصادر كالمناقب: ٢/٣٤٩ وبحار الأنوار: ١/٤٧ و٢ و٤ وجواهر الكلام: ٢٠/٨٨ وعمدة الزائر: ٣٠٥ ـ فلم نجد لها ما يسندها ويقوى اعتماد المؤرخين الأوائل.

(٤٢) تاريخ خليفة: ٢/٦٥٥ وطبقات خليفة: ٢/٦٧٢ وتاريخ اليعقوبي: ٣/١١٥ وذيل المذيل: ٦٥٣ والكافي: ١/٤٧٢ و٤٧٥ ومروج الذهب: ٣/٢١٢ والارشاد: ٢٨٩ وتهذيب الطوسي: ٦/٧٨ والمناقب: ٢/٣٤٩ وسر السلسلة العلوية: ٣٤ وصفة الصفوة: ٢/٩٨ وكفاية الطالب: ٣٠٩ ووفيات الأعيان: ١/٢٩١ ومطالب السؤول: ٢/٦٠ وكامل ابن الأثير: ٥/٢٧ ومنهاج السنة: ٢/١٢٤ وتذكرة الخواص: ٣٥٥ وتذكرة الحفاظ: ١/١٦٧ وسير أعلام النبلاء: ٦/٢٦٩ والعبر: ١/١٦٠ والبداية والنهاية: ١٠/١٠٥ وتاريخ أبي الفدا: ٢/ ـ والنجوم الزاهرة: ٢/٨ والفصول المهمة: ٢١٢ ومرآة الجنان: ١/٣٠٤ ومآثر الانافة: ١/١٧٩ وتهذيب التهذيب: ٢/١٠٤ وحياة الحيوان: ٢/١٠٤ والصواعق المحرقة: ١٢١ والأئمة الاثنا عشر: ٨٥ وشذرات الذهب: ١/٢٢٠ وبحار الأنوار: ١/٤٧ و٢ و٤ وزهرة المقول: ٥٥ وجواهر الكلام: ٢٠/٩٨ ونور الأبصار: ١٣٥ واسعاف الراغبين: ٢١٣ وعمدة الزائر: ٣٠٥ وينابيع المودة: ٣٨٠ [illegible] ٤٧٣/٦ ومختصر تاريخ العرب: ١٩٤ وعقيدة الشيعة: ١٤٨ والأعلام: ٢/١٢١ ومعجم المؤلفين: ٣/٢٤٥.

ومع هذا الاتفاق المسلَّم على تحديد السنة حتى نادى أن يكون إجماعاً نجد رواية ابن قتيبة (في المعارف: ٢١٥) في وفاته سنة ١٤٦ هـ، هذا الرشيد أيضاً، كما ان تردد ابن عنبة (في عمدة الطالب: ٢٨٤) بين ١٤٨ و١٤٧ لا تزيد له من الناحية التاريخية

وجدُّه ومن قبلهما الحسن بن علي[43] ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ.

وأثر عن الامام الكاظم ـ ع ـ إخباره بأنه كفّن اباه في ثوبين شطويين كان يحرم فيهما؛ وفي قميصٍ من قمصه؛ وفي عمامةٍ كانت لعلي بن الحسين ـ ع ـ؛ وفي بردٍ اشتراه لهذا الغرض[44].

وتقول احدى الروايات: ان المنصور لما بلغه خبر وفاة الامام أسرع بالكتابة الى واليه على المدينة: «إنْ كان أوصى الى رجلٍ بعينه فقدِّمه واضرب عنقه»، فرجع الجواب اليه: انه أوصى الى خمسة: أبي جعفر المنصور ومحمد بن سليمان وابنيه موسى وعبدالله وزوجته حميدة[45].

وذكرت رواية اخرى: انه أوصى الى يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب والى أمّ موسى والى أمّ ولد، وان يحيى المذكور «كان يلي أمر تركاته والأصاغر من ولده»

(٤٣) الكافي: ١/٤٧٢ ومروج الذهب: ٣/٢١٢ والارشاد: ٢٨٩ وتهذيب الطوسي: ٦/٧٨ والمناقب: ٢/٣٤٩ وكفاية الطالب: ٣٠٩ وكامل ابن الأثير: ٥/٢٧ ووفيات الأعيان: ١/٢٩١ وتذكرة الخواص: ٣٥٦ ومطالب السؤول: ٢/٦٠ وتاريخ أبي الفدا: ٢/٥ ومرآة الجنان: ١/٣٠٤ والفصول المهمة: ٢١٢ والأئمة الاثنا عشر: ٨٥ والصواعق المحرقة: ١٢١ وشذرات الذهب: ١/٢٢٠ وبحار الأنوار: ١/٤٧ وجواهر الكلام: ٢٠/٨٨ ونور الأبصار: ١٣٥ وعمدة الزائر: ٣٠٥.

(٤٤) بحار الأنوار: ٤٧/٧.

(٤٥) بحار الأنوار: ٤٧/٣.

بعد وفاته[46].

ومهما يكن من أمر ابصاء الامام وأسماء أوصيائه فان الهدف الرئيس فيها هو إخفاء وصيه الحقيقي ـ وهو ولده الامام الكاظم (ع) ـ وحمايته من مطاردة السلطة وبطشها، وتتجسم الحكمة ويُعْد النظر بأجلى معالمها في اختيار الأوصياء الخمسة الذين يأتي في مقدمتهم الخليفة نفسه.

وتبارى الشعراء والادباء الذين لم يكونوا من مرتزقة دار الخلافة في التعبير عن أحاسيسهم بعمق الفاجعة وشدة النازلة، فرثوا الامام بفصيح الشعر وبليغ النظم، وكان منهم الشاعر أبو هريرة الأبّار الذي قال فيه:

أنزل وقد راحوا به بحملونه ... على كاهلٍ من حامليه وعاتقِ
أندرون ماذا تحملون الى الثرى ... ثبير ثوى من رأس علياء شاهقِ
غداة حثا الحاثون فوق ضريحه ... تراباً، وأولى كان فوق المفارقِ
أبا صادق ابن الصادقين البُهَ ... بآبائك الأطهار حلفة صادقِ[47]

وقال مالك بن أعْيَن الجُهَني يرثيه:

فياليتني ثم ياليتني ... شهدتُ وان كنتُ لم أشهد
فآسيتُ في بِشْه جعفراً ... وساهمتُ في لَطَفِ العُوَّدِ

(٤٦) مقاتل الطالبيين: ٤٦٤.

(٤٧) المناقب: ٢/٣٤٨.

ومن قبل نفسك قلتُ الفداء وكفُّ المنيَّة بالمرصد
عشية يُدفَن فيه الندى وغرَّةُ زُهْرٍ بني أحمد[48]

وقال حمران بن أعْيَنَ الطائي المقرىء النحوي يرثيه:

بكيتُ على خير ما الخالقِ بسابقه صفوة الخالقِ
بكيتُ على ابن نبيِّ الهدى بدمعٍ على وجنتي سابقِ
ربيع البلاد وغيث العباد لسارب صيبٍ ولطارقِ
ووارث علم نبيِّ الهدى وميزان حقٍّ به ناطقِ
فصلَّى الاله على روحه وأكرم مثواه من صادقِ[49]

★★★

وهكذا انتهت أيام عمر الامام الصادق (ع) على هذه الأرض؛ بكل ما حملته من شدائد وآلام وأحزان، ورفعه الله تعالى الى عليين حيث مستقر الأنبياء والصدِّيقين..؛ بعد أن ترك ثروة من الفقه والعلم والتأملات [كما يقول الاستاذ الشرقاوي]، وأنشأ في الحياة الفكرية تياراً جديداً خصباً أعلى فيه العقل والنظر والتأمل والعلم، وجمع المعارف كلها وعلوم الدنيا والدين.. وخلَّف في كل البلاد مئات الفقهاء الذين يروون عنه ويعلِّمون

(٤٨) معجم الشعراء: ٣٦٦.
(٤٩) انباه الرواة: ١/ ٣٤٠.

الناس فقهه وشروحه وآراءه؛ فضلاً عن فقهاء الشيعة»[50].

«ولما مات أحسَّ العالم الاسلامي كله بفقده [كما يقول الشيخ أبو زهرة]، وكان له ذكر عطر على كل لسان. ومن الأئمة ما اختلف فيه الناس.... والامام الصادق قد أجمع كل العلماء على فضله»[51].

وسلام الله الأسنى وتحياته الحسنى عليه يوم وُلِد؛ ويوم نشأ وشبَّ؛ ويوم أصبح إماماً للمسلمين؛ ويوم ذهب الى ربه؛ ويوم يبعث حيّاً.

(٥٠) شخصيات اسلامية: ٥١.
(٥١) الامام الصادق: ٦٥.

تُرَاثُ الإِمَامَةِ

قال الشيخ محمد بن محمد بن النعمان المفيد ـ قبل أكثر من عشرة قرون ـ وهو يتحدّث عن الامام الصادق (ع):

«نقل الناسُ عنه من العلوم ما سارت به الركبان؛ وانتشر ذكره في البلدان، ولم يُنقَل عن أحدٍ من أهل بيته العلماء ما نُقِل عنه، ولا لقي أحد منهم من أهل الآثار ونقلة الأخبار ولا نقلوا عنهم كما نقلوا عن أبي عبدالله ـ ع ـ، فان أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات؛ على اختلافهم في الآراء والمقالات؛ فكانوا أربعة آلاف رجل»[1]. «والأخبار فيما حُفظ عنه ـ ع ـ من العلم والحكمة والبيان والحجة والزهد والموعظة وفنون العلم كله؛ أكثر من أن تُحصى بالخطاب؛ وتُحوَى بالكتاب»[2].

واستقبله يوماً معاصره المحدّث الحافظ عبدالله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١ هـ فقال:

أنت يا جعفر فوق المدح والمدحُ عناء
أنما الأشراف أرضٌ ولهم أنت سماء
جاز حدّ المدح من قد ولدَتْهُ الأنبياء[3]

---

(١) الارشاد: ٢٨٨ ـ ٢٨٩.
(٢) المصدر نفسه: ٣٠٢.
(٣) المناقب: ٢/٣٤٧.

وعلى هذه الشاكلة جاءت أقوال آخرين من قدامى السلف المعنيين بالتاريخ والتراجم؛ ومباحث التفسير والفقه؛ وشؤون الحديث والكلام؛ ومسائل العلم والفكر، في العصور الاسلامية المتعاقبة.

أما المعاصرون المهتمون في هذه الموضوعات فقد كان حديثهم عن الامام الصادق ومدرسته العلمية وقيادته الحركة الفكرية مشيعاً ووافياً ومتعدد الجوانب، وكان منهم الباحث الهندي سيد أمير علي الذي قال وهو يتحدث عن النهضة العلمية في أواخر العهد الاموي:

«أصبحت المناقشات الفلسفية عامةً في كل حاضرة من حواضر العالم الاسلامي، ولا يفوتنا أن نشير الى أن الذي تزعّم تلك الحركة هو حفيد علي بن أبي طالب المسمى بالامام جعفر والملقّب بالصادق، وهو رجل رحب افق التفكير، بعيد أغوار العقل، ملمٌ كل الالمام بعلوم عصره، ويعتبر في الواقع أولَ من أسّس المدارس الفلسفية المشهورة في الاسلام. ولم يكن يحضر حلقته العلمية اولئك الذين أصبحوا فيما بعد مؤسّسي المذاهب الفقهية فحسب، بل كان يحضرها أيضاً طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الأنحاء القاصية»[4]، ثم نصّ من بينهم على

(٤) مختصر تاريخ العرب: ١٧٩.

«واصل بن عطاء أحد تلاميذ الامام جعفر الصادق. . . . وقد أخذ عنه واصل تقدير الفكر الانساني»[5].

وقال المستشرق دونلدسن في خلال ترجمته للامام:

«كانت له شبه مدرسة سقراطية، وقد ساهم عدد من تلامذته مساهمة عظمى في تقدم علمَي الفقه والكلام، وصار اثنان من تلامذته ـ وهما أبو حنيفة ومالك بن أنس ـ فيما بعد من أصحاب المذاهب الفقهية. . . . . ويروى أن تلميذاً آخر من تلامذته وهو واصل بن عطاء رئيس المعتزلة جاء بنظريات في الجدل. . . . وكان جابر بن حيان الكيماوي من تلامذته أيضاً»[6].

وقال العالم الأزهري الشيخ محمد أبو زهرة:

«ما أجمع علماء الاسلام على اختلاف طوائفهم في أمرٍ كما أجمعوا على فضل الامام الصادق وعلمه، فأئمة السنة الذين عاصروه تلقوا عنه وأخذوا، أخذ عنه مالك ـ رض ـ وأخذ عنه طبقة مالك. . . . وأخذ عنه أبو حنيفة مع تقاربهما في السن واعتبره أعلم الناس. . . . وقد تلقى عليه رواية الحديث طائفة كبيرة من التابعين. . . . ولم يكن علمه مقصوراً على الحديث وفقه الاسلام، بل كان يدرّس علم الكلام، والمعتزلة يعتبرونه من أئمتهم. . . . وله معهم مناظرات قيمة. . . . ودرس علم

(٥) المصدر نفسه: ٢٣٧.
(٦) عقيدة الشيعة: ١٤١.

الكون . . . . وبذلك استحق الامامة العلمية في عصره، كما استحقها أبوه وجده من قبله . . . . فقد كانوا جميعاً أئمة الهدى، يقتدى بهم، ويقتبس من أقوالهم»[7].

وقال الكاتب المصري عبدالرحمن الشرقاوي:

«مضى الامام جعفر الصادق وقد ورث الامامة عن أبيه . . . . يخوض غمرات الحياة المضطربة . . . . على وجهه شعاع من نور النبوة، هذّاه عكوفُه على دراسة القرآن والحديث الى أن واجب المسلم أن يؤمن عن اقتناع وتدبر وتفكر في ظواهر الحياة والكون، فهي دليله الى الايمان بوحدانية الله. وهذّاه هذا التفكير الى الاهتمام بعلوم الطبيعة والكيمياء والفلك والطب والنبات والأدوية، لأنها علوم تحقق مصالح الناس؛ وتحرر الفكر؛ وتهديه الى الايمان العميق الحق الراسخ . . . . وآمن بالتجربة والنظر العقلي والجدل طريقاً الى الايمان، وسلّحته معرفته الواسعة العميقة بالعلوم في الاستدلال والاقناع وجذب أصحاب العقول المنكرة الى الدين»[8].

هكذا كان الامام الصادق (ع) في عطائه الفكري واشراقه الثقافي، وهكذا اتفقت الكلمة وأجمعت الامة على كون ذلك العطاء والاشراق عظيم الأبعاد والآفاق؛ متعدد الموضوعات

(7) الامام الصادق: ٦٦ ـ ٦٨.
(8) شخصيات اسلامية: ٤٠ ـ ٤١.

والفنون؛ واسع الجوانب والأغوار، وقد تجاوز علم الفقه والحديث والتفسير والكلام؛ الى مذاهب الفلسفة وعلوم الطبيعة ومسائل الكون وظواهر الحياة عامةً.

ولاغرابة ولاعجب أن تجتمع في انسانٍ واحدٍ كلُّ هذه المزايا النادرة والعبقريات الفذة، فيكون الفرد الأوحد الذي استطاع أن ينهض بالفكر الانساني ليعطيه حقه المتميز وشأنه المرموق في الملأ العلمي والمجتمع الاسلامي في عصره.

أقول: ليس في ذلك ما يدعو الى غرابة أو عجب؛ ولا ينطوي الاعتقاد به على غلوٍّ أو مبالغة، فهو ابن مَنْ، وحفيد مَنْ، ووارث مَنْ.

إنه ابن الامام الذي لقّبه جدُّه رسول الله (ص) بالباقر لأنه «يبقر العلم بقراً»[9] وحفيد مَنْ أجمع المسلمون على تلقيبه زين العابدين وسيد الساجدين، ووريث باب مدينة العلم ومعهد الحكمة وبيت الوحي علي أمير المؤمنين.

وكان جعفر بن محمد (ع) يقول وهو الصادق حقاً فيما يقول:

«إن حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين، وحديث أمير

(9) يراجع في تخريج هذا الحديث النبوي كتابنا «الامام محمد بن علي الباقر» ١٧ ـ ٢٠.

المؤمنين حديث رسول الله ـ ص ـ، وحديث رسول الله ـ ص ـ قول الله عز وجل»[10].

وهذا المعنى بنفسه هو المراد من قوله ـ عليه السلام ـ في حديثه الآخر: «علمُنا غابرٌ ومزبور ونُكتٌ في القلوب ونَقْرٌ في الأسماع»[11]، إذ يعني بالغابر: العلم بما يكون؛ وبالمزبور: العلم بما كان؛ وبالنُّكت في القلوب: الإلهام؛ وبالنَّقر في الأسماع: سماع حديث الملائكة من دون رؤيتهم، أي رواية حديثهم وكأنهم يسمعونهم فيما تنزلوا به حقاً وصدقاً على رسول الله ـ ص ـ. وكل ذلك ـ باستثناء الالهام ـ داخلٌ في المأثور عن النبي ـ ص ـ مما سمعه عليٌّ ـ ع ـ منه فحدَّث به أولاده أو دوَّنه في الصحف المروية عنه مما سُمِّيَ جفراً وجامعة كما يأتي، وليس فيه أي معنى من معاني علم الغيب المباشر الذي لم يتوسط فيه وحيٌ ورسول، كما جاء في حديث سدير قال: «كنتُ أنا وأبو بصير ويحيى البزاز وداود بن كثير في مجلس أبي عبدالله ـ ع ـ، إذ خرج الينا وهو مغضب، فلما أخذ مجلسه قال: ياعجباً لأقوام يزعمون أنّا نعلم الغيب، ما يعلم الغيب الا الله عزَّ وجل»، وقال عجباً مَنْ سأله عن مصدر علمهم ـ يعني الأئمة: «وراثة من رسول الله ـ ص ـ ومن علي ـ ع ـ»، وكما قال أيضاً في خلال حديث آخر:

(١٠) الكافي: ١/٥٣ والارشاد: ٢٩٣.
(١١) الكافي: ١/٢٦٤ والارشاد: ٢٩٢ والمناقب: ٢/٣٤٧.

«وكان ذلك كما أخبر الله رسوله؛ وكما أخبر رسولهُ علياً، وكما انتهى الينا من علي مما يكون بعده»[12].

أما الإلهام فقد فضَّل الشيخ محمد أبو زهرة أن يطلق عليه اسم الإشراق وقال: «اننا لانتفي الاشراق الروحي عن أولئك الذين زكتْ أنفسهم وراضوها بالاخلاص والاتجاه الى الله تعالى»[13].

ولعل منشأ اختياره «الاشراق» أنه لاينظر الى «الالهام» نظرة الاحترام والتقدير، بل يأبى أن يكون علم الامام الصادق (ع) إلهامياً؛ وانما هو ـ في رأيه ـ «علم كسبي فيه إشراق»، وقال: «لو قلنا ان علمه كان إلهامياً خالصاً ما كان مجتهداً وما كان متعرفاً للأحكام، بل كانت تلقى اليه إلقاءً كما يُتَلَقّى الوحي»[14].

وما أدري كيف أصبح الاجتهاد أعلى مقاماً من النبوة، وكيف صار تلقّي الوحي بهذه المثابة من انحطاط الدرجة عند شيخنا الأزهري المفضال؟!!.

وما أدري لماذا ينكر الشيخ المذكور نسبة الالهام للامام؛ مع أن الناس ينسبونه لعموم المبدعين منهم إشادة بهم واعجاباً؛ فيقولون: الشاعر الملهم؛ والفنان الملهم والاديب الملهم؟!!!.

★★★

(١٢) الكافي: ١/٢٥٧ و٢٦٤ والمناقب: ٢/٢٩٨.
(١٣) الامام الصادق: ٧٤
(١٤) المصدر نفسه: ٧١.

ومهما يكن من أمر؛ فقد اتضح لنا بكل جلاءٍ مصدر علم الامام ومنبعه الثرّ الدفاق، روايةً عن أبيه عن آبائه؛ ووراثةً من جدّه الأعلى الرسول الخاتم ـ ص ـ؛ الذي كان مطّلعاً على الغيب بلا ريب؛ ووافقاً على خفايا الامور بلا شك؛ وعالماً بواسطة الوحي والملائكة بكثيرٍ مما يجهله البشر من غوامض وأسرار. ومَنْ كانت هذه مصادر معرفته لن يكون بحاجةٍ الى اولئك الشيوخ الذين زُعِمَ ان الامام قد تلقّى العلم منهم[15]، لأن ذلك في الحقيقة محض افتراضٍ لم يُدعم بدليل قاطع، بل مجرد ادعاءٍ ينقصه البرهان المقنع، وخصوصاً عندما نقرأ فيما بينهم أسماء عروة بن الزبير والزهري وأمثالهما من مرتزقة السلطة ومأجوريها؛ المعروفين بانحرافهم عن أهل البيت؛ والمشهورين بسيرهم وراء خطى أعدائهم المجاهرين فهم بالبغض والشنآن.

وعندما تحدّث الشيخ محمد أبو زهرة عن أساتذة الامام الصادق وشيوخه في الفقه والرواية عدَّ في طليعتهم أباه الامام الباقر (ع) ـ وذلك مما لاشك فيه ـ ثم ثنّاه بالقاسم بن محمد ـ جدِّ الامام أبي أمّه ـ وقال: «لابد انه أخذ عنه وآل علمه اليه»، ثم قال بعد ذلك في موضع آخر من الكتاب: «لايمكن أن نفرض ان شاباً شادياً في الفقه يكون الفقه في بيته من جده أبي امه؛ أو على

(١٥) منهاج السنة: ٢/١٢٣ وتذكرة الحفاظ: ١/١٦٦ وتهذيب التهذيب: ٢/١٠٣.

مقربةٍ من داره، ويتجافاه ولايطلبه»، كما قال أيضاً في أثناء الكتاب: «ولايمكننا أن نتصوّر أنه لم يأخذ عن جدّه»[16].

ثم زعم الشيخ أبو زهرة ان الامام قد تلقى العلم ممن سماهم الفقهاء السبعة، وقال مستدلاً على زعمه: «ان أكثر دروس هؤلاء كانت بمسجد الرسول ـ ص ـ، ولايمكن أن نفرض أن ثمة حاجزة تمنعه من الدخول الى مسجد الرسول، فلا يمكن أن نفرض ان آل البيت قد انقطعوا عن مسجد جدهم الذي تشد اليه الرحال»[17].

وواضح لدى كل من وقف على مناهج البحث العلمي المعتمدة وطرائقه المقرّرة ان الحقائق التاريخية لاتثبت بمجرد قولنا: «لايمكننا أن نتصور»، وانما تحتاج الى القطع واليقين أو الى الاطمئنان القوي والظن الراجح في الأقل. ولم يقدِّم لنا الشيخ أي سندٍ لما ادّعى من «اللابديّة» و«عدم إمكان التصور» في أخذه عن القاسم؛ الا استحسانه الذوقي وافتراضه الشخصي الذي لايصلح أن يكون دليلاً على اثبات الحقائق وتأكيد الوقائع في كل الأحوال.

كذلك لم يقدِّم لنا البرهان المقنع على ماذهب اليه من وجود الرابط الذي لايفصم بين دخول المسجد النبوي وحضور

(١٦) الامام الصادق: ٢٦ و١٧٢ و٣٨٧.
(١٧) الامام الصادق: ١٧٣.

حلقات اولئك السبعة، وما أدري كيف يصح عدُّ عدم حضور هذه الحلقات دليلاً على الانقطاع عن دخول ذلك المسجد الذي تشد اليه الرحال؟!!!.

ولهذا وغيره لم يجد الحافظ الذهبي بدّاً ـ بعد سرد الأسماء المزعومة لمن أخذ عنهم الامام ـ من أن يقول: «وليس هو بالمكثر الا عن أبيه»[18]، لانه لم يجد ما يدل على غير ذلك. وقال سبط ابن الجوزي: «أسند جعفر الحديث عن أبيه محمد.... ولقي جماعة من التابعين منهم عطاء بن أبي رباح وعكرمة في آخرين»[19]، ولم يقل انه أسند أو حدّث عن هؤلاء التابعين.

★★★

والتفّ حول هذا الامام العظيم وارث وحي السماء وأسرار التنزيل ـ وهو الذي اتفق الجميع على كونه أوحد زمانه في كل العلوم وفي مقدمتها التفسير والفقه والحديث ـ علماءُ الاسلام وطلاب الدين ورواد الفكر وعشاق المعرفة، فتجاوز عدد الرواة عنه والمغترفين من بحره اربعة آلاف راوٍ ومستفيد؛ وفيهم من أصبح معدوداً من المشاهير على كل صعيد.

وكان في طليعة هؤلاء كلٌ من:

ـ الامام موسى بن جعفر الكاظم ـ ع ـ، المتوفى سنة ١٨٣هـ.

---

(١٨) سير أعلام النبلاء: ٦/٢٥٥.

(١٩) تذكرة الخواص: ٣٥٦.

ـ أبي حنيفة النعمان بن ثابت؛ إمام المذهب، المتوفى سنة ١٥٠هـ.

ـ مالك بن أنس إمام المذهب، المتوفى سنة ١٧٩هـ.

ـ أيوب السختياني، المتوفى سنة ١٣١هـ.

ـ أبان بن تغلب، المتوفى سنة ١٤١هـ.

ـ يحيى بن سعيد الأنصاري، المتوفى سنة ١٤٣هـ.

ـ محمد بن اسحاق صاحب السيرة، المتوفى سنة ١٥١هـ.

ـ أبي عمرو بن العلاء، المتوفى سنة ١٥٤هـ.

ـ شعبة بن الحجاج، المتوفى سنة ١٦٠هـ.

ـ سفيان الثوري، المتوفى سنة ١٦١هـ.

ـ سفيان بن عيينة، المتوفى سنة ١٩٨هـ.

ـ يحيى بن سعيد القطان، المتوفى سنة ١٩٨هـ.

وآلاف غيرهم[20].

واتفق مترجمو الامام ـ وفيهم عدد من الحفّاظ البارزين ـ على كونه «قد حدَّث عنه الأئمة»[21] و«احتج به سائر الامة»[22] لأنه

---

(٢٠) يراجع في الوقوف على أسماء الرواة عن الامام الصادق ـ ع ـ: الفهرست: ١١٣ و٢٢٣ و٢٢٤ و٢٧٦ وحلية الأولياء: ٣/١٩٣ ـ ١٩٩ و٢٠١ ـ ٢٠٦ ورجال الطوسي: ١٤٢ ـ ٣٤٢ والمناقب: ٢/٣٢٥ وصفة الصفوة: ٢/٩٨ ومنهاج السنة: ٢/١٢٤ وسير أعلام النبلاء: ٦/٢٥٦ وتذكرة الحفاظ: ١/١٦٦ والنجوم الزاهرة: ٢/٩ وتهذيب التهذيب: ٢/١٠٣ والصواعق المحرقة: ١٢٠.

(٢١) صفة الصفوة: ٢/٩٨ وسير أعلام النبلاء: ٦/٢٥٧ والصواعق المحرقة: ١٢٠ ونور الأبصار: ١٣٣.

(٢٢) تذكرة الحفاظ: ١/١٦٧ وتهذيب التهذيب: ٢/١٠٤.

«ثقة لايُسأل عن مثله» كما يقول أبو حاتم[23]، و«نقل عنه الحديث واستفاد منه العلم جماعة من الائمة وأعلامهم».

وعدُّوا أخذهم عنه منقبة شرفوا بها وفضيلة اكتسبوها، كما يقول ابن طلحة الشافعي[24]، وروى ابن أبي الحديد المعتزلي: ان علم جميع فقهاء المذاهب الاسلامية عائد الى جعفر بن محمد ومستمدٌّ منه، لأن «أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمد وغيرهم أخذوا عن أبي حنيفة، وأما الشافعي فقرأ على محمد بن الحسن فيرجع فقهه أيضاً الى أبي حنيفة، وأما أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعي فيرجع فقهه أيضاً الى أبي حنيفة، وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد - ع -»[25].

ولم يضع الامام الصادق بعد هذا الاجماع الاسلامي عنه أن يشذ البخاري فيعزف عنه ولايسند اليه حديثاً في كتابه[26]، وقال الشريف الحضرمي محمد بن عقيل معلّقاً على هذا العزوف:

«احتجّ الستة في صحاحهم بجعفر الصادق الا البخاري... ولا يُدرى بماذا يُعتذر عن البخاري - رحمه الله -، وقد قيل في هذا المعنى:

---

(٢٣) تذكرة الحفاظ: ١/١٦٦ وسير أعلام النبلاء: ٦/٢٥٧ وتهذيب التهذيب: ٢/١٠٤.

(٢٤) مطالب السؤول: ٢/٥٥.

(٢٥) شرح نهج البلاغة: ١/١٨.

(٢٦) تذكرة الحفاظ: ١/١٦٧ وسير أعلام النبلاء: ٦/٢٦٩ وشذرات الذهب: ١/٢٢٠.

قضيةٌ أشبهُ بالألغازْ ... هذا البخاريُّ إمامُ الفئةْ

بالصادقِ الصدّيقِ ما احتجَّ في ... صحيحه واحتجَّ بالمرجئةْ

ومثلِ عمران بن حطّان أو ... مروان وابن المرأة المُخطئةْ

مشكلةٌ ذات عوارٍ الى ... حيرة أربابِ النُّهى مُلجئةْ

وحقُّ بيتٍ يُمّمتْه الورى ... مغذّةً في السيرِ أو مُبطئةْ

انَّ الامامَ الصادقَ المجتبى ... بفضله الأيُ أتتْ مُنبئةْ

أجلُّ مَنْ في عصره رتبةً ... لم يفترف في عمره سيّئةْ

قُلامةٌ من ظُفرِ إبهامِهِ ... تعدل من مثل البخاري مئةْ[27]

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة معلّلاً عدم رواية البخاري عن الامام الصادق (ع) مع رواية مسلم وسائر أصحاب السنن عنه:

«ان البخاري لايشكُّ في صدقه [أي صدق الامام] وهو صاحب المقام الجليل في الاسلام، ولكن موضع الشك هو السند المتصل به أي الرواة الذين يوصلون السند اليه»[28].

ولكن هذا الشيخ المفضال لم يوفّق في دفاعه عن البخاري؛ ولم يقدّم لنا سبباً مقبولاً أو وجهاً مقنعاً لهذا الإعراض، لأننا نقول له تعقيباً على تعليله العليل:

اذا كان موضع الشك هم شيعة الامام الذين يروون عنه؛ فلماذا لم يروعنه من طريق أبي حنيفة ومالك والسفيانين ويحيى بن

---

(٢٧) الصنائع الكافية: ٩٣.

(٢٨) الامام الصادق: ٢٥٢.

سعيد وأضرابهم ممن لم يكونوا من شيعته وليسوا موضع الشك لديه؟!!.

وخلاصة القول الذي اتفقت الكلمة عليه أن إعراض البخاري عن الامام لم يأبه به المحققون، لأن الاجماع الاسلامي قائم على الاحتجاج بحديثه، كما لم يأبهوا أيضاً بما رواه سعيد بن أبي مريم قال: «قيل لأبي بكر بن عياش: مالك لم تسمع من جعفر وقد أدركته؟ قال. سألناه عما يتحدث به من الأحاديث أشيء سمعته؟ قال: لا؛ ولكنها رواية رويناها عن آبائنا»[29].

ولست أدري لماذا تكون رواية الامام عن آبائه ـ وهم شجرة النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ـ موضعاً للشك والوقف والارتياب؟!!، ولعله لو روى أحاديثه عن عروة بن الزبير وأضرابه لما تردد ابن عياش في قبولها والحكم عليها بالصحة والتصديق!!!.

(٢٩) تهذيب التهذيب: ٢/١٠٣.

ونعود بعد هذا التمهيد الموجز الى صلب الموضوع؛ وهو تراث الامام الصادق (ع) الفكري الذي حفلت به الكتب وزخرت به المصادر ورواه الرواة على اختلاف مذاهبهم ومناهجهم، ولقد كان من السعة والشمول بمكان عظيم جداً، ومن الكثرة والوفرة بما يفوق حدّ الاحصاء والعدّ في مثل هذه الدراسة القائمة على الاختصار والتلخيص، وقد تقدّمت منا الاشارة الى أن عدد الرواة عنه قد بلغ أربعة آلاف راوٍ أو يزيد، وليس في امكان كتابنا هذا أن يستوعب أسماء هؤلاء الآلاف فضلاً عن استيعاب نصوص اولئك الرواة.

ولما كان العلم هو الهدف الأسمى للامام في جميع توجهاته وتطلعاته فقد أولى هذا الجانب المزيد من العناية والاهتمام، وقد رُوِيَ عنه الكثير الكثير في ذلك، حثّاً على طلب العلم؛ وأمراً بكتابته وبثّه، مضافاً الى بيان ما يجب أن يكون عليه المعلّم والمتعلّم من أدب وتواضع؛ والى تحديد الغاية المرجوة من وراء ذلك كله.

انه ـ عليه السلام ـ يقول: «طلب العلم فريضة»[1].

ويقول: «الناس ثلاثة: عالم ومتعلّم وغُثاء»[2].

(١) الكافي: ١/٣٠.
(٢) الكافي: ١/٣٤.

ويقول: «مَنْ سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً الى الجنة»، و«فَضْلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر»، و«ان العلماء ورثة الأنبياء»[3].

ويقول: «اكتبوا فانكم لاتحفظون حتى تكتبوا»[4].

ويقول لأحد أصحابه: «اكتب وبثّ علمك في اخوانك، فإنْ متُّ فأورث كتبك بنيك»[5].

ويقول: «اطلبوا العلم . . . . وتواضعوا لمن تعلّمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم»[6].

ويقول: «طلبة العلم ثلاثة ـ فاعرفهم بأعيانهم وصفاتهم ـ: صنف يطلبه للجهل والمراء، وصنف يطلبه للاستطالة والختل، وصنف يطلبه للفقه والعقل»[7].

ويقول: «وجدتُ علم الناس كله في أربع: أولها أن تعرف ربك، والثاني: أن تعرف ما صنع بك، والثالث: أن تعرف ما أراد منك، والرابع: أن تعرف ما يخرجك من دينك»[8].

الى كثير من أمثال هذه النصوص التي حثّ فيها على طلب

(٣) الكافي: ١/ ٣٤.
(٤) الكافي: ١/ ٥٢.
(٥) الكافي: ١/ ٥٢.
(٦) الكافي: ١/ ٣٦.
(٧) الكافي: ١/ ٤٩.
(٨) الكافي: ١/ ٥٠ والارشاد: ٣٠١.

العلم، ورغّب في التأليف والكتابة والبحث، وشجّع على ذلك بل عدّه فريضة من الفرائض؛ كما عدَّ غير العالم والمتعلم من الناس غُثاءً كالزَّبد الذي يطفو فوق الماء جامعاً أقذاره واوساخه.

ولعل أدقّ ما أرشد اليه الامام فيما أسلفنا نقله من أقواله الذهبية تنبيه المسلمين على ضرورة أن يكون طلب العلم «للفقه» سواء أكان بمعناه الخاص لأنه شريعة الله في الأرض أو بمعناه العام وهو الفهم ـ وأظنه الأرجح والألصق بالسياق ـ؛ و«للعقل» لأنه أغلى ما منح الله الانسان وأنفس ما أعطاه، ولذلك يجب أن تكون الغاية العليا من الجدِّ في التعلم تنمية العقل الرافض للخرافات؛ ورفده بألوان المعارف وضروب الثقافات، لكي يضمن المجتمع تقدمه وتحضُّره وبناء مستقبله الأفضل، ولذلك كان الامام الصادق (ع) يعلن بكل صراحة وتأكيد بأن «العقل دليل المؤمن»[9]، كما كان يروي عن جده رسول الله ـ ص ـ انه كان يقول: «اذا رأيتم الرجل كثير الصلاة كثير الصيام فلا تباهوا به حتى تنظروا كيف عقله»[10].

ثم أعطى طلبة العلم المنهج الأساس ودشّم على الميزان القويم؛ للتمييز بين ما يُقبَل وما يُرفَض من الأحاديث والروايات المتداولة، فقال: «كل شيء مردود الى الكتاب والسنة، وكل

(٩) الكافي: ١/ ٢٥.
(١٠) الكافي: ١/ ٢٦.

حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف»[11]، وحدِّث ـ ع ـ بسنده عن جده رسول الله ـ ص ـ أنه قال: «ما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدَعوه»[12].

ونهى طلبة العلم نهياً قاطعاً عن الأخذ بالبدع والعمل بها مهما كانت الظروف والأحوال فقال: «كل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة سبيلها الى النار»[13].

ثم قال لهم مانعاً من الاجتهاد في مقابل النص؛ ومشدِّداً على الالتزام بثوابت الحلال والحرام: «حلال محمد حلال أبداً الى يوم القيامة، وحرامه حرام أبداً الى يوم القيامة»[14].

وكان من جملة توجيهاته العامة ما خاطب به شيعته وأصحابه على وجه الخصوص؛ طالباً منهم أدب السلوك وحسن الخلق وجودة الالتزام بواجبات الدين وتعاليم الاسلام، وكانت مخاطباته لهم في هذا الصدد ذات صيغ كثيرة ومتعددة، وقد كرَّر ذلك في أكثر من مناسبة ووقت؛ لئلا يغفل منهم غافل؛ أو يزعم

(١١) الكافي: ١/٦٩.
(١٢) الكافي: ١/٦٩. ويقول المستشرق دونلدسن: «اذا ماتذكرنا ان مالك بن أنس (٩٤ ـ ١٧٩) مصنف كتاب الموطأ كان معاصراً للامام جعفر، وقد سبق البخاري ومسلم بنحو قرن، ظهر ان الامام جعفراً هو الذي يُعْزى اليه القول في بعض الحديث: ان ماكان موافقاً لما في كتاب الله فاقبلوه، وماكان مخالفاً له فاتركوه» عقيدة الشيعة: ١٤٤.
(١٣) الكافي: ١/٥٦ و٥٧.
(١٤) الكافي: ١/٥٨.

زاعم بأنه لم يسبق له العلم بمثله ولم يبلغه خبره.

انه يقول في خلال حديثه مع أصحابه:

«ما أقلَّ واللهِ مَنْ يتبع جعفراً منكم، انما أصحابي من اشتدَّ ورعه، وعمل لخالقه، ورجا ثوابه»[15].

ويقول لهم في مناسبة اخرى:

«ياشيعة آل محمد؛ اعلموا أنه ليس منّا من لم يملك نفسه عند غضبه، ومن لم يحسن صحبة من صحبه؛ ومخالقة من خالقه؛ ومرافقة من رافقه؛ ومجاورة من جاوره؛ ومماحكة من ماحكه. ياشيعة آل محمد؛ اتقوا الله ما استطعتم»[16].

ويقول مخاطباً أحد اصحابه:

«اياك والسفلة، فانما شيعة عليٍّ من عفَّ بطنه وفرجه، واشتد جهاده، وعمل لخالقه؛ ورجائوا به وخاف عقابه، فاذا رأيت اولئك فاولئك شيعة جعفر»[17].

ويقول لأبي اسامة زيد الشحام:

«اقرأ على مَنْ ترى أنه يطيعني منهم ويأخذ بقولي السلام، واوصيكم بتقوى الله عز وجل؛ والورع في دينكم؛ والاجتهاد لله؛ وصدق الحديث؛ وأداء الأمانة؛ وطول السجود؛ وحسن

(١٥) الكافي: ٢/٧٧.
(١٦) الكافي: ٢/٦٣٧ وتحف العقول: ٢٨٤.
(١٧) الكافي: ٢/٢٣٣.

الجـوار، فبهـذا جـاء محمـد ـ ص ـ (الى أن قـال:) صلوا عشـائركم؛ واشهـدوا جنـائزهم؛ وعـودوا مـرضـاهم؛ وأدوا حقـوقهم، فان الـرجل منكم اذا ورع في دينه وصدق الحـديث وادّى الأمـانة وحسن خلقه مع النـاس وقيل: هـذا جعفـري؛ فيسرُّني ذلك ويدخل عليَّ منه السرور؛ وقيل: هذا أدب جعفر. واذا كان على غير ذلك دخل عليَّ بلاؤه وعاره»[18].

ثم كان من نتمة توجيهاتـه السامية لعموم شيعته في دلالتهم عـلى الـطريق القـويم والنهج السليم؛ تحـذيرهم من الغلو في الاعتقاد بالأئمة؛ ونهيهم أشد النهي عن ذلـك؛ وإعلانـه البراءة ممن يقول بذلك ولعنه بصريح اللعن وأجلاه[19]، وروى المفضـل ابن عمر قال: «كنتُ أنا وخالد الجوان ونجم بن الحطيم وسليمان ابن خالد على باب الصـادق ـ ع ـ، فتكلمنا فيما يتكلم به أهـل الغلو، فخـرج علينا الصـادق بـلا حـذاء ولا رداء وهـو ينتفض ويقول: ياخالد يامفضّل ياسليمان يانجم؛ ﴿بل عباد مُكرَمون لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾[20].

ورُوي عن صـالح بن سهـل قال: «كنتُ أقـول في الصـادق

(١٨) الكافي: ٢/٦٣٦.

(١٩) يراجع في لعن الامام (ع) الغلاة وعلى رأسهم المغيرة بن سعيد وأبو الخطاب الأسدي: المناقب: ٢/٣٠٢ ولسان الميزان: ٦/٧٦ وبحار الأنوار: ٤٧/٣٣٨ و٣٧٨.

(٢٠) المناقب: ٢/٣٠١ وبحار الأنوار: ٤٧/١٢٥.

ـ ع ـ ماتقول الغلاة، فنظر إليَّ وقـال: ويحك ياصالـح! إنّا والله عبيد مخلوقون، لنا ربٌّ نعبده، وإن لم نعبده عذّبنا»[21].

وحدّث أبو العباس البقباق قال: «نزارٌ ابن أبي يعقوب والمعلّى ابن خنيس فقال ابن أبي يعقوب: الأوصياء علماء أتقياء أبـرار، وقال ابن خنيس: الأوصياء أنبياء. قال: فدخلا عـلى أبي عبدالله ـ ع ـ، فلما استقر مجلسهما قال ـ ع ـ: أبرأ ممن قال إنّا أنبياء»[22].

★★★

واذا انتقلنا في حديثنا عن تراث الامامة من دائرة التوجيهـات العـامة والارشـادات الأساسيـة في الاعتقاد والأخـلاق والآداب وسائر الاهتمامات العملية والسلوكية؛ الى حقول العلم والمعرفـة في مختلف ميادينها الرئيسة ومجالاتها النافعة، يتمثل لنا عـلى رأس ذلـك مارواه المفسرون والمحـدثون عن الامـام الصـادق (ع) في شرح معـاني القرآن الكـريم وتفسير آيـاتـه المبـاركـة، من حيث اللفظ؛ أو من حيث السياق؛ أو بملاحظة الانسجام الكامل مـع الاستعمالات القرآنيـة التي ورد فيها ذلـك في مجمـوع المصحف الشريف. وكـان هذا المـرويُّ من الكثرة والعمق وسمـو الشـأن بالدرجة التي لو قُدّر له أن يُجمَع لجاء تفسيراً نفيساً مستوعباً لكثير من آيات القرآن الكريم وسُوَره. ونورد فيما يـأتي بعضاً من أمثلة

(٢١) المصدران السـابقان جزءاً وصفحة.

(٢٢) المناقب: ٢/٣٠٨ وبحار الأنوار: ٤٧/١٣٠.

ذلك تعريفاً بمنهج الامام في التفسير؛ واسلوبه في إجلاء ماتنطوي عليه تلك الآيات من مقاصد وأغراض:

جاءه يوماً مَنْ سأله عن قوله تعالى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم أن لاتعدلوا فواحدة﴾ هل يتناقض مع قوله تعالى: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل﴾؟، فقال له الامام: ان الله انما عنى في الآية الاولى العدلَ في النفقة؛ وفي الثانية العدلَ بين امرأتين في المودة[٢٣].

«ورُوِيَ أنه سُئل الصادق ـ ع ـ عن قول الله عز وجل في قصة ابراهيم ـ ع ـ: ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ قال: ما فعله كبيرهم وما كذب ابراهيم ـ ع ـ، قيل: وكيف ذلك؟، فقال: انما قال ابراهيم: فاسألوهم إن كانوا ينطقون؛ فإن نطقوا فكبيرهم فعل، وإن لم ينطقوا فكبيرهم لم يفعل شيئاً، فما نطقوا وماكذب ابراهيم».

«فسُئل عن قوله في سورة يوسف: ﴿أيتها العير انكم لسارقون﴾ قال: انهم سرقوا يوسف من أبيه، ألا ترى انه قال لهم حين قالوا: ماذا تفقدون: ﴿قالوا: نفقد صواع الملك﴾ ولم يقل سرقتم صواع الملك، إنما سرقوا يوسف من أبيه».

(٢٣) المناقب: ٢/٣٢٧ وبحار الأنوار: ١٠/٢٠٢ و٤٧/٢٢٥.

فسُئل عن قول ابراهيم: ﴿فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم﴾ قال: ماكان ابراهيم سقيماً وماكذب، انما عنى سقيماً في دينه أي مرتاداً»[٢٤].

وسأل أبو عمرو الزبيريُّ الامام الصادق ـ ع ـ عن وجوه الكفر في كتاب الله عزّ وجلّ؟ فقال:

«الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه: فمنها كفر الجحود؛ والجحودُ على وجهين، والكفر بترك ما أمر الله، وكفر البراءة، وكفر النعم».

«فأما كفر الجحود فهو الجحود بالربوبية؛ وهو قول من يقول: لا ربَّ ولاجنة ولانار، وهو قول صنفين من الزنادقة يقال لهم الدَّهرية: وهم الذين يقولون: ﴿وما يهلكنا الا الدهر﴾، وهو دين وضعوه لأنفسهم بالاستحسان؛ على غير تثبُّت منهم ولا تحقيق لشيء مما يقولون، قال الله عز وجل: ﴿إنْ هم الا يظنون﴾ أن ذلك كما يقولون، وقال: ﴿ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذرهم لايؤمنون﴾ يعني بتوحيد الله تعالى. فهذا أحد وجوه الكفر».

«وأما الوجه الآخر من الجحود [فهو الجحود] على معرفة: وهو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنه حق قد استقر عنده، وقد قال

(٢٤) الاحتجاج: ١٩٤، والكلمة الأخيرة من النص فيه: (مرتاداً) كما اثبتنا، أي طالباً باحثاً، واحتمل بعضهم ان تكون (مرتابا) أي شاكاً مترددا.

الله عز وجل: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾، وقال الله عز وجل: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾. فهذا تفسير وجهي الجحود».

«والوجه الثالث من الكفر: كفر النِّعَم، وذلك قوله تعالى يحكي قول سليمان - ع -: ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فانما يشكر لنفسه، ومن كفر فان ربي غنيٌ كريم﴾، وقال: ﴿لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد﴾ وقال: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولاتكفرون﴾.

«والوجه الرابع من الكفر: ترك ما أمر الله عز وجل به؛ وهو قول الله عزّ وجل: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولاتخرجون أنفسكم من دياركم. . . . أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾. . . فكفَّرهم بترك ما أمر الله عز وجل به، ونسبهم الى الايمان ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده فقال: ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يُرَدُّون الى أشدّ العذاب. . .﴾.

«والوجه الخامس من الكفر: كفر البراءة، وذلك قوله عزّ وجل يحكي قول ابراهيم - ع -: ﴿كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ يعني: تبرّأنا منكم، وقال يذكر ابليس وتبرّيه من أوليائه من الانس يوم

القيامة: ﴿اني كفرتُ بما أشركتموني من قبل﴾. وقال: ﴿انما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودّة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ يعني: يتبرأ بعضكم من بعض»[٢٥].

الى كثير من أمثال ذلك مما يجده الباحثون والمراجعون مسطوراً في المصادر الاسلامية المعنية بالتفسير والدراسات القرآنية.

كذلك عُنيت تلك المصادر باثبات ماورد عن الامام الصادق - ع - فيما قرأبه القرآن، مما تناقله القراء والرواة عنه في كتب المعاني والقراءة[٢٦]، وسواء أصحَّ كل ذلك أو بعضه فانه في مجمله دليل على اهتمام اولئك جميعاً بتراث الامام في هذا الموضوع؛ وبتداول قراءته وتناولها فيما بينهم على مرّ الأجيال والسنين.

★★★

---

(٢٥) الكافي: ٢/٣٨٩ - ٣٩١.

(٢٦) وردت رواية قراءته - على سبيل المثال - في:

- معاني القرآن للفراء: ٣/١٢٨.

- المحتسب لابن جني: ١/١٥١ و١٧٦ و٢١٧ و٢١٩ و٢٧٢ و٢٨٦ و٣٠٦ و٣١٨ و٣٢٢ و٣٣١ و٣٣٩ و٣٤٤ و٣٥٥ و٣٥١ و٣٦٣ و٣٦٤ و٢/٣٨ و٦٣ و٧٩ و٨٣ و٥٩ و١٦٩ و١٧٠ و٢١٢ و٢٢٣ و٢٢٦ و٢٢٧ و٢٢٣.

- مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه: ٣٥ و٤٦ و٥٥ و٦٤ و٩٦ و١٠٠ و١٢٢ و١٧٥.

ثم يبرز في تراث الامام وتركته الغالية ـ بعد المأثور عنه في تفسير القرآن الكريم وتبيينه ـ مايكمل ذلك ويتمّه من شرح معاني الحديث النبوي الشريف ومسائل الفقه واصوله العملية، وهو موضوع لامجال للدخول في تفاصيله؛ لأنه أوسع من أن يحتضنه كتاب واحد؛ بل أضخم من أن تجمعه بضعة مجلدات، مهما كبر حجمها ومهما تضاعف عدد مافي كل مجلد منها من صفحات وفي كل صفحة من سطور.

لقد كان يلجأ اليه المسلمون في تفسير الحديث النبوي المبارك وتبيان معناه اذا التبس عليهم أمره ولم يتضح لهم المراد منه، لأنه رأس أهل البيت الطاهر في عصره ـ وأهل البيت أدرى بالذي فيه ـ.

ولقد كانوا يلجأون اليه في ايضاح مالم يعلموا من الأحكام الفقهية والمسائل الشرعية؛ لأنه ابن الوحي ووارث القرآن وخازن التنزيل، فيجدون عنده مالا يوجد مثله عند غيره من المتفقهين والمحدّثين.

وتكفينا مؤونة الحديث عن كل ذلك والتطويل فيه؛ نظرةٌ عجلى نلقيها على كتاب الكافي لمحمد بن يعقوب الكليني المتوفى سنة ٣٢٩هـ[٢٧]؛ وكتاب من لايحضره الفقيه لعلي بن الحسين

(٢٧) من الأوهام الكبرى التي سقط فيها الشيخ محمد أبو زهرة قوله في هذا الخصوص: «ان أقدم المؤلفين الذين جمعوا أحاديث الصادق وأفعاله وأقواله هو

الصدوق المتوفى سنة ٣٨١هـ؛ وكتابي الاستبصار والتهذيب لمحمد بن الحسن الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠هـ، فقد جمعت هذه الكتب الأربعة ـ وهي أهم مدوّنات الحديث عند الشيعة الامامية ـ آلاف الأحاديث المروية عن الامام الصادق (ع) في مختلف أبواب الفقه وفروع المسائل الشرعية، ولذلك أطلق البعض على الفقه الشيعي الاثني عشري اسم «الفقه الجعفري» نسبة الى الامام جعفر الصادق (ع) لضخامة المنسوب اليه من ذلك، وإن كان بعضه غير ثابت الصحة بحسب القواعد المقررة في علم الدراية.

كذلك وردت الرواية عن الامام في مسائل الفقه وأحكا.

الكليني في كتابه الكافي، واذا لوحظ ان الكليني توفي سنة ٣٢٩ أي بعد وفاة الامام الصادق ـ رض ـ بنحو من ١٨١ سنة ولم يذكر السند المتصل الى الامام الصادق في كل الأحوال، نعم انه يروي الكثير عن تلاميذه، ولكن من المؤكد أنه لا يلتقي بتلاميذه، الا اذا فرضنا ان تلاميذه امتدت أعمارهم الى أكثر من مائة سنة؛ أو فرضنا عنده سنداً متصلاً غير منقطع».

ثم قال بعد ذلك:

«والكلام في الفترة ما بين الكليني . . . وبين الصادق ـ رض ـ، فان هذه الفترة فجوة ربما تقطع السند وتمنع اتصاله الامام الصادق: ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

ولعل مراجعة سريعة لروايات الكافي ـ وهو مطبوع أكثر من مرة ـ تكشف للقارىء خطأ الشيخ أبي زهرة فيما قال، لان الأسانيد فيه متصلة بالامام بعدد من الرواة وبلا انقطاع أو فجوة متخيّلة، ولذلك يكون افتراض امتداد الأعمار الى أكثر من مائة سنة كما ادعى الشيخ المذكور توهماً واضحاً واشتباهاً بيّناً له. كما نحيل القارىء أيضاً على كتاب التهذيب للطوسي في شأن الرواية التي ذكر الشيخ أبو زهرة ان سندها غير كامل فيه (الامام الصادق: ٢٦١).

الشريعة في مصادر الحديث الاخرى المعتمدة لدى المسلمين ـ على تعدد مسالكهم ومشاربهم الفقهية ـ، ومنها على سبيل المثال: سنن النسائي وسنن الترمذي ومسند الامام أحمد بن حنبل[٢٨].

وفي الرواية عن عبدالمؤمن الانصاري ـ شاهداً على الرجوع الى الامام في شرح الحديث النبوي الغامض المعنى ـ قال:

«قلت لأبي عبدالله ـ ع ـ: ان قوماً رووا ان رسول الله ـ ص ـ قال: (اختلاف أمتي رحمة)، فقال: صدقوا، قلت: إن كان اختلافهم رحمة فاجتماعهم عذاب. قال: ليس حيث تذهب وذهبوا، وانما أراد قول الله عز وجل: ﴿فلولا نفر من كل فرقة طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون﴾ وأمرهم أن ينفروا الى رسول الله ـ ص ـ ويختلفوا اليه ويتعلموا ثم يرجعوا الى قومهم فيعلّموهم، انما أراد اختلافهم في البلدان لا اختلافاً في الدين، انما الدين واحد»[٢٩].

★★★

---

(٢٨) سنن النسائي: ١/١٠٧ و١٢٣.
٥/١٤٣ و١٥٥ و١٥٧ و١٦٢ و١٦٤ و١٧٦ و٢٣٩ و٢٤٠ و٢٤٣ و٢٤٤ و٢٥٥ ـ ٢٥٦ و٢٦٥ و٢٦٧ و٢٧٤ ـ ٢٧٥.
سنن الترمذي: ٣/٦٢٨.
٤/٢٢٨ و٦٢٥.
مسند أحمد: ١/٢٦٧.
(٢٩) الاحتجاج: ١٩٤.

واستكمالاً لمباحث الفقه وأحكامه أولى الامام اهتماماً كبيراً بعلم اصول الفقه؛ تعليماً وشرحاً وتبياناً لقواعده الرئيسة واسسه الكبرى، ودلالة للمتعلمين على ما يصح وما لايصح الاعتماد عليه من ذلك. وقد روى لنا الباحثون القدامى وفي طليعتهم الحافظ أبو نعيم والشيخ الطبرسي مناقشات الامام الصادق لأبي حنيفة النعمان بن ثابت فيما ذهب اليه من العمل بالقياس وعدّه من اصول الفقه وأركان استنباط الأحكام الشرعية؛ وتنبيه الامام تلميذه على فساد ذلك وبطلانه.

وتقول الروايات ـ وقد ضممنا بعضها لبعض ـ: ان أبا حنيفة لما دخل على الامام الصادق (ع) لأول مرة، سأله الامام:

مَنْ انتَ؟.

قال: أبو حنيفة.

قال الامام: مفتي أهل العراق؟

قال: نعم.

قال الامام: بم تفتيهم؟

قال: بكتاب الله.

قال الامام: وانك لعالمٌ بكتاب الله ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه؟.

قال: نعم.

قال الامام: فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿وقدّرنا فيها

السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين﴾ أي موضع هو؟.

قال: هو مابين مكة والمدينة.

فالتفت أبو عبدالله ـ ع ـ الى جلسائه وقال: نشدتكم بالله؛ هل تسيرون بين مكة والمدينة ولاتأمنون على دمائكم من القتل وعلى أموالكم من السرّق؟، فقالوا: اللهم نعم.

فقال الامام: يا أبا حنيفة؛ ان الله لايقول الا حقّاً. أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ومَنْ دخله كان آمناً﴾ اي موضع هو؟.

قال: ذاك بيت الله الحرام.

فالتفت الامام الى جلسائه وقال: نشدتكم بالله؛ هل تعلمون ان عبدالله بن الزبير وسعيد بن جبير دخلاه فلم يأمنا القتل؟، قالوا: اللهم نعم.

فقال الامام: يا أبا حنيفة، ان الله لايقول الّا حقّاً.

فقال أبو حنيفة: أنا صاحب قياس.

قال الامام: فانظر في قياسك؛ أيهما أعظم عند الله القتل أو الزنا؟.

قال: القتل.

قال الامام: فكيف رضي في القتل بشاهدَيْن؛ ولم يرض في الزنا الا بأربعة؟.

ثم قال له: الصلاة أفضل أم الصيام؟.

قال: الصلاة أفضل.

قال الامام: فيجب ـ على قياس قولك ـ على الحائض قضاء ما فاتها من الصلاة في حال حيضها، وقد أوجب الله تعالى عليها قضاء الصوم دون الصلاة.

ثم قال له الامام: البول أقذر أم المني؟

قال: البول أقذر.

قال الامام: فيجب على قياسك الغسل من البول، وقد أوجب الله تعالى الغسل من المني دون البول.

قال: انما أنا صاحب رأي.

قال الامام: فما ترى في رجل كان له عبدٌ؛ فتزوّج وزوّج عبده في ليلة واحدة، فدخلا بامرأتيهما في ليلة واحدة، ثم سافرا وجعلا امرأتيهما في بيت واحد، وولدتا غلامين، فسقط البيت عليهم فقتل المرأتين وبقي الغلامان؛ أيهما في رأيك المالك وأيهما المملوك وأيهما الوارث وأيهما الموروث؟.

قال: انما أنا صاحب حدود.

قال الامام: فما ترى في رجل أعمى فقأ عينَ صحيح؛ وأقطع قَطَعَ يدَ رجل؛ كيف يقام عليهما الحدُّ؟.

ثم قال الامام: يانعمان هل تحسن أن تقيس رأسك؟

قال: لا.

قال الامام: ما أراك تحسن أن تقيس شيئاً، فهل عرفت الملوحة في العينين؛ والمرارة في الاذنين؛ والبرودة في المنخرين

والعذوبة في الفم؟. وهل عرفتَ كلمةً أوفى كفرٌ واخرها ايمان؟.

ثم قال الامام: بانعمان؛ حدثني أبي عن جدي عن آبائه: ان رسول الله (ص) قال: أول منْ قاس أمرَ الدين برأيه إبليس، قال الله تعالى له: اسجد لآدم، فقال: «أنا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين»، فمن قاس الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بابليس لأنه اتّبعه بالقياس.

ثم ختم الامام هذه المناقشات مخاطباً أبا حنيفة ـ في لفظ أبي نعيم ـ: «اتق الله ولاتقس الدين برأيك»، وفي لفظ الطبرسي وغيره: «ان دين الله لم يوضع على القياس»[30].

ومن طرائف مايروى في حوار الامام مع أبي حنيفة وتنبيهاته اياه على خفايا المسائل الفقهية فيما تنطوي عليه من الخطأ والصواب ماورد من أنه سأل أبا حنيفة يوماً: «ما تقول في مُحرمٍ كسرَ رباعية ظبيٍ؟ فقال: يا ابن بنت رسول الله (ص) لا أعلم ما فيه» فقال له الامام: «أما تعلم ان الظبي لاتكون له رباعية وهو ثنيٌ أبداً»[31].

★★★

(٣٠) يراجع في تصوير هذه المناقشات: الكافي: ١/٥٨ وحلية الأولياء: ٣/١٩٧ والمناقب: ٢/٣٢٨ ـ ٣٢٩ والاحتجاج: ١٩٦ ـ ١٩٧ وحياة الحيوان: ٢/١٠٣ وبحار الأنوار: ٤٧/٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٣١) وفيات الأعيان: ١/٢٩٢ وحياة الحيوان: ٢/١٠٣ والأئمة الاثنا عشر: ٨٦ وشذرات الذهب: ١/٢٣٠.

وكان من جملة ذلك التراث النفيس الذي خلّفه الامام للمفكرين والباحثين من رواد المعرفة وطالبي الحقيقة: ما أثر عنه من المناظرات البليغة والمحاججات الشيقة والجوابات الشافية الوافية؛ في كثير من مطالب الفلسفة وعلم الكلام؛ التي كان يطرحها الملحدون والمشككون من جهة؛ وذوو الآراء الاعتقادية من المسلمين من جهة اخرى. وتميزت أجوبة الامام وردوده بالاستدلال المقنع والبرهان الواضح والشرح المعمّق والحوار الصريح، لأن الامام كان ـ كما قال الشيخ محمد أبو زهرة ـ «على علم دقيق بالفلسفة ومناهج الفلاسفة؛ وعلى علم بمواضع التهافت عندهم»، ولهذا «اشتهرت مناظرات الامام الصادق، حتى صار مصدراً للعرفان بين العلماء، وكان مرجعاً للعلماء في كل ماتعضل عليهم الاجابة عنه من أسئلة الزنادقة»[32].

وقد روى الرواة عن الامام تلك الاجابات والمناقشات المعنيّة بأهم موضوعات الكلام والفلسفة بنصوصها التفصيلية الكاملة، وقد تضمنتْ ـ فيما تضمنت ـ البحثَ في حدوث العالم واثبات المحدث؛ وفي التوحيد ونفي الأنداد؛ وفي الحاجة الى الأنبياء والرسل؛ وفي الارادة والمشيئة والقضاء والقدر والجبر والتفويض؛ وفي البداء والمحو والاثبات؛ وفي غير ذلك وما شاكله من فروع هذه الموضوعات وما يرتبط بها من أفكار

(٣٢) الامام الصادق: ٩٩.

وشؤون[٣٣].

وللتمثيل والاستشهاد على ما أسلفنا ذكره نسوق النصوص الآتية:

أ ـ رُوي «ان أبا حنيفة أكل طعاماً مع الامام الصادق جعفر بن محمد (ع)، فلما رفع الصادق يده من أكله قال: الحمد لله رب العالمين، اللهم هذا منك ومن رسولك (ص). فقال أبو حنيفة: يا أبا عبدالله، أجعلتَ مع الله شريكاً؟!. فقال له (ع): ويلك، ان الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وما نقموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ ويقول عز وجل في موضع آخر: ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾. فقال أبو حنيفة: والله لكأني ما قرأتهما قط من كتاب الله ولا سمعتهما الا في هذا الوقت»[٣٤].

ب ـ وجاء في خلال احتجاجه على أحد الزنادقة:

قال الزنديق: مابال ولد آدم فيهم شريف ووضيع؟.

قال الامام: الشريف هو المطيع، والوضيع: العاصي.

قال الزنديق: أليس فيهم فاضل ومفضول؟.

---

(٣٣) يراجع في ذلك كتب الحديث، ومنها: الكافي: ١/ ٧٢ ـ ٨١ و١٠٩ و١٢٨ ـ ١٢٩ و١٤٦ ـ ١٤٨ و١٥٨ و١٦٠ و١٦٣ و١٦٨ ـ ١٦٩ والارشاد: ٢٩٩ ـ ٣٠١ وكشف المحجوب: ٢٥٨ ـ ٢٧٧ والاحتجاج: ١٨٠ ـ ١٩٨ وبحار الأنوار: ١٠/ ١٦٣ ـ ٢٣٣.

(٣٤) بحار الأنوار: ١٠/ ٢١٦.

قال الامام: انما يتفاضلون بالتقوى.

قال الزنديق: فتقول ان ولد آدم كلهم سواء في الأصل لايتفاضلون الا بالتقوى؟.

قال الامام: نعم؛ اني وجدتُ أصل الخلق التراب، والأب آدم والأمُّ حواء، خلقهم إلهٌ واحد وهم عبيده. ان الله عز وجل اختار من ولد آدم اناساً طهّر ميلادهم وطيّب أبدانهم وحفظهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء، أخرج منهم الأنبياء والرسل، فهم أزكى فروع آدم، فعل ذلك لا لأمرٍ استحقوه من الله عز وجل، ولكن علم الله منهم حين ذرأهم أنهم يطيعونه ويعبدونه ولا يشركون به شيئاً، فهؤلاء بالطاعة نالوا من الله الكرامة والمنزلة الرفيعة عنده، وهؤلاء الذين لهم الشرف والفضل والحسب. وسائر الناس سواء الا من اتقى الله، فان من اتّقى الله أكرمه، ومن أطاعه أحبّه، ومن أحبّه لم يعذّبه بالنار.

قال الزنديق: فأخبرني عن الله عز وجل كيف لم يخلق الخلق كلهم مطيعين موحّدين وكان على ذلك قادراً؟.

قال الامام: لو خلقتهم مطيعين لم يكن لهم ثواب، لأن الطاعة ماكانت فعلهم، ولم تكن جنة ولا نار. ولكن خلق خلقه فأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته، واحتج عليهم برسله وقطع عذرهم بكتبه، ليكونوا هم الذين يطيعون ويعصون، ويستوجبون بطاعتهم له الثواب وبمعصيتهم اياه العقاب.

قال الزنديق: فالعمل الصالح من العبد هو فعله، والعمل الشرُّ من العبد هو فعله؟.

قال الامام: العمل الصالح العبد يفعله والله به أمره، والعمل الشرُّ العبد يفعله والله عنه نهاه.

قال الزنديق: أليس فعله بالآلة التي ركَّبها فيه؟.

قال الامام: نعم، ولكن بالآلة التي عمل بها الخير قَدَرَ بها على الشرِّ الذي نهاه عنه.

قال الزنديق: فالى العبد من الأمر شيء؟.

قال الامام: ماتهاه الله عن شيء الا وقد علم أنه يطيق تركه، ولا أمره بشيء الاّ وقد علم أنه يستطيع فعله، لأنه ليس من صفته الجور والعبث والظلم وتكليف العباد ما لايطيقون»[٣٥].

وهذا المعنى هو الذي لخَّصه الامام (ع) بقوله الشهير: «لاجبر ولاتفويض ولكنّ أمرٌ بين أمرين»، فلما سُئل عن معنى قوله: «أمر بين أمرين» قال: «مَثَلُ ذلك رجلٌ رأيتَه على معصية فنهيتَه فلم ينته، فتركتَه ففعل تلك المعصية، فليس حيث لم يقبل منك فتركتَه كنتَ أنت الذي أمرتَه بالمعصية»[٣٦].

ومثله أيضاً ماروي عنه (ع) انه قال:

«الناس في القدرة على ثلاثة أوجه: رجل يزعم أن الأمر

(٣٥) بحار الأنوار: ١٠/ ١٧٠ ـ ١٧١.

(٣٦) الكافي: ١/ ١٦٠.

مفوَّض اليه فقد وهن الله في سلطانه فهو هالك. ورجل يزعم أن الله أجبر العباد على المعاصي وكلَّفهم ما لايطيقونه فقد ظلم الله في حكمه فهو هالك. ورجل يزعم ان الله كلَّف العباد ما يطيقونه ولم يكلِّفهم ما لايطيقونه؛ فاذا أحسن حمد الله؛ واذا أساء استغفر الله؛ فهذا مسلم بالغ»[٣٧].

وتفريعاً على ذلك روى المستشرق دونلدسن عن أبي حنيفة امام المذهب قوله:

«لو لم يقل الامامُ ثلاث مسائل لقبلتُ به. فقد قال: ان الخير من الله والشرُّ من عمل عباده، وأقول: أن لا اختيار للعبد؛ وان الخير والشر من الله. والثانية أنه قال: ان الشيطان يُعذَّب يوم القيامة بالنار، وأقول: ان النار لاتحرقه؛ فهو من نار، والنار لاتؤذي نفسها. والثالثة: انه قال باستحالة رؤية الله بالدنيا أو الآخرة، وأقول: ان كل موجود يمكن رؤيته إن لم يكن في هذه الدنيا ففي الأخرة».

«وكان بهلول يسمع ـ وهو من المتشيعين للامام ـ فرفع لَبِنَةً وضرب بها رأس أبي حنيفة وقال وهو يهرب: لقد فندتُ مسائلك الثلاث. فاشتكاه أبو حنيفة الى الخليفة، فأمر ببهلول وجيء به، فسأله: لِمَ ضربتَ رأس أبي حنيفة بلبنة؟ فقال: لم أفعل ذلك. فاحتجَّ أبو حنيفة قائلاً: ولكنك ضربتني. فأجاب بهلول: ألم

(٣٧) تحف العقول: ٢٧٧.

تقـل ان الشرُّ من الله ولا اختيار للعـبد؛ فلِمَ تلومني؟، وقلتَ كذلك: ان الشيء لايؤذي نفسه، وأنت خُلِقتَ من تراب وكانت اللَّبِنة من تراب فكيف آذتك؟، وقلت: انك تقدر أن ترى الله؛ إذ كل موجود يمكن رؤيته حسب قولك، فاسألك أن تريني الألم الذي في رأسك»[٣٨].

ج - روى عبدالكريم بن عتبة الهاشمي قال:

«كنتُ عنـد أبي عبدالله - ع - بمكـة؛ إذ دخل عليـه اناس من المعتزلة فيهم عمـرو بن عبيد وواصـل بن عطاء وحفص بن سـالم واناس من رؤسائهم، وذلـك حين قُتـل الـوليـد واختلف أهـل الشـام فيما بينهم، فتكلمـوا فأكـثروا. . . . فقال لهم أبـو عبدالله جعفـر بن محمد (ع): انكم قـد أكثرتم عليَّ فاطلتم، فـأسنـدوا أمركم الى رجل منكم فليتكلم بحجتكم وليوجزه.

«فأسندوا أمـرهم الى عمرو بن عبيـد. . . . فكان فيـما قال: قتـل أهـلُ الشـام خليفتهم وضرب الله بعضهم ببعض وتشتَّت أمرهم، فنظرنا فوجـدنا رجـلاً له دين وعقـل ومروءة. . . . هـو محمـد بن عبدالله بن الحسن، فـأردنا أن نجتمـع معه فنبـايعه ثم نظهر أمرنا معه وندعو الناس اليه، فمن بايعه كنا معه وكان منّا، ومن اعتزَلَنا كففنا عنه، ومن نصب لنا جاهـدناه ونصبنا له على بغيه؛ ونرده الى الحق وأهله. وقد أحببنا أن نعـرض ذلك عليـك

(٣٨) عقيدة الشيعة: ١٤٢ - ١٤٣

فانه لاغنى بنا عن مثلك؛ لفضلك ولكثرة شيعتك».

«فلما فـرغ قـال لهم أبـو عبـدالله: أكلكم عـلى مثـل مـا قـال عمرو؟، قالوا: نعم».

«فحمـد الله وأثنى عليـه، وصـلّى عـلى النبي، ثم قـال: انما نسخط اذا عُصيَ الله، فاذا أُطيع رضينا. أخبرني ياعمرو؛ لـو ان الامة قلَّدتك أمرها فملكتَه بغير قتال ولا مؤونة، فقيل لك: وَلِّها من شئتَ، مَنْ كنتَ تُوَلِّي؟».

«قال: كنتُ أجعلها شورى بين المسلمين».

«قال: بين كلِّهم؟».

«قال: نعم».

«قال: بين فقهائهم وخيارهم؟».

«قال: نعم».

«قال: قريش وغيرهم؟».

«قال: العرب والعجم».

«قال: فأخبرني ياعمرو؛ أتتولّى ابا بكر وعمر او تتبرأ منهما؟».

«قال: أتولاهما».

«قـال: ياعمـرو؛ إن كنتَ رجلاً تتـبرأ منهما فـانـه يجـوز لـك الخلاف عليهما، وإن كنتَ تتولاهما فقد خالفتَهـا، قد عهـد عمر الى أبي بكـر فبايعـه ولم يشاور أحـداً، ثم ردُّها ابـو بكر عليـه ولم يشـاور أحداً، ثم جعلهـا عمر شـورى بـين ستـة فـأخـرج منهـا

الأنصار وغير اولئك الستة من قريش، ثم أوصى الناس فيهم بشيء ما أراك ترضى به أنت ولا أصحابك».

«قال: وما صنع؟».

«قال: أمر صهيباً أن يصلي بالناس ثلاثة أيام؛ وأن يتشاور اولئك الستة ليس فيهم أحد سواهم الا ابن عمر يشاورونه وليس له من الأمر شيء، وأوصى من بحضرته من المهاجرين والأنصار إن مضت ثلاثة أيام ولم يفرغوا أن تضرب أعناق الستة جميعاً، وإن اجتمع أربعة قبل أن تمضي ثلاثة أيام وخالف اثنان أن تضرب أعناق الاثنين. أفترضون بذا فيما تجعلون من الشورى بين المسلمين؟».

«قالوا: لا».

«قال: ياعمرو. . . . لو بايعتَ صاحبك هذا الذي تدعو اليه، ثم اجتمعت لكم الامة ولم يختلف عليكم منها رجلان، فأفضيتم الى المشركين الذين لم يُسْلِموا ولم يؤدوا الجزية، كان عندكم وعند صاحبكم من العلم ماتسيرون فيهم بسيرة رسول الله ـ ص ـ في المشركين في الجزية؟».

«قالوا: نعم».

«قال: فتصنعون ماذا؟».

«قالوا: ندعوهم الى الاسلام، فإن أبوا دعوناهم الى

الجزية».

«قال: فإن كانوا مجوساً؛ وأهل كتاب؛ وعبدة نيران وبهائم وليسوا بأهل كتاب؟».

«قالوا: سواء».

«قال: فأخبروني عن القرآن؛ أتقرأونه؟».

«قالوا: نعم».

قال مخاطباً عمراً: «اقرأ: ﴿قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسولهُ ولايدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتابَ حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾، فاستثنى الله عز وجل واشترط ﴿من الذين اوتوا الكتاب﴾، فهم والذين لم يؤتوا الكتاب سواء؟».

«قال: نعم».

«قال: عمن أخذتَ هذا؟».

«قال: سمعتُ الناسَ يقولونه. . . .»[٣٩].

وهكذا يستمر الامام في حواره مع عمرو وأصحابه مشايخ المعتزلة وقادتهم الفكريين، بل هكذا هو ـ كما تقدم نقل بعضه والاشارة الى بعض آخر ـ في جميع مناظراته ومحاججاته ومحاوراته مع تلك الأعداد الكبيرة من المحاورين والمناظرين؛ من الزنادقة الملحدين؛ ومشككي الفلاسفة والمتكلمين؛ وذوي الآراء

(٣٩) الاحتجاج: ١٩٧ ـ ١٩٨.

الخاصة من المسلمين، مما لايتسع المجال لسرد تفاصيله في هذا البحث المختصر المحدود.

★★★

ومن تراث الامامة المشرق الخالد مارواه الرواة من توجيهات الامام السامية في ادارة الدولة وولاية الحكم ورعاية شؤون الناس، وتحديده الخطوط الأساسية لما يجب أن يتحلى به المتصدي للمراكز الادارية من التزام وضبط وحسن تصرف وسلامة اداء.

ومع أن الامام الصادق (ع) لم يتسلّم سلطة ولم يتبوّأ منصباً ولم يُبْتَلَ بمسؤوليات الحكم الدنيوي المباشر، فان بعض القائمين على مثل هذه الامور كانوا يلجأون اليه مستعينين برأيه وطالبين إرشاده، لمعرفة مايلزمهم اتّباعه في العمل والسلوك؛ وما يفرضه الدين الحنيف من السيرة المثلى في الرعية؛ والادارة الفضلى للمصالح العامة.

ومما رُوي في هذا الموضوع: ان عبدالله النجاشي كتب اليه يوماً يخبره بتوليه امور ولاية الأهواز، ويطلب منه التوجيه والارشاد في هذا الشأن، فأجابه الامام جواباً مفصّلاً يضم ابرز واجبات الوالي والتزاماته تجاه الناس، مما يصلح أن يكون منهجاً لذوي المسؤولية العامة في كل عصر ومصر. وكان من أهم تلك التعليمات:

- حقن الدماء، وكفُّ الأذى عن أولياء الله، والرفق بالرعية،

والتأنّي وحسن المعاشرة، مع لين في غير ضعف؛ وشدة في غير عنف».

- اياك والسعاة وأهل النمائم فلا يلتزقنّ منهم بك أحد».

- اياك أن تعطي درهما أو تخلع ثوباً أو تحمل على دابّة في غير ذات الله لشاعرٍ أو مضحك أو متمزّح الا أعطيتَ مثله في ذات الله».

- لتكن جوائزك وعطاياك وخلعك للقواد والرسل والأجناد وأصحاب الرسائل. . . . من أطيب كسبك».

- اجهد أن لاتكتز ذهباً ولافضة».

- لاتستصغرنّ من حلوٍ أو فضلِ طعامٍ تصرفه في بطون خالية».

- اياك أن تخيف مؤمناً».

- حدّثني أبي عن آبائه عن علي (ع) عن النبي (ص) قال: أدنى الكفر أن يسمع الرجلُ عن أخيه الكلمةَ فيحفظها عليه يريد أن يفضحه بها، اولئك لاخلاق لهم».

- وختم كلامه قائلاً: ثم اني اوصيك بتقوى الله وايثار طاعته والاعتصام بحبله، فانه من اعتصم بحبل الله فقد هُديَ الى صراط مستقيم»[٤٠].

★★★

---

(٤٠) بحار الأنوار: ٧٨/ ٢٧١ ـ ٢٧٧.

ولم يكن هذا الامام العظيم المستوعب الوقت في جميع ما أسلفنا ذكره؛ من تعليم امور الدين؛ وايضاح مسائل الشريعة؛ وتفسير القرآن والحديث، ومحاورة السائلين والمستفهمين؛ وبيان حقائق العلم والمعرفة في مختلف جوانبها وشتى ألوانها وسائر فروعها ومجالاتها، بعيداً عن دنيا الشعر؛ أو بمنأى عن عالم الأدب، رواية واستشهاداً؛ وتمثّلاً وانشاداً، إن لم نقل بأن الأمثلة المروية قد دلّت على مستوى عالٍ جداً من رهافة الحسّ وسرعة البديهة وسمو الذوق في انتقاء الأشعار وجودة الاستحضار وجمال الاختيار. ونورد فيما يأتي بعض الشواهد على ذلك مما وقفنا عليه في كتب الحديث والأدب:

أ ـ حدّث الامامُ احدَ أصحابه بحديث، ثم سأله بعد ذلك بحين: أخبرتَ بما أخبرتُك به أحداً؟، قال: لا؛ الا سليمان بن خالد. قال الامام: «أحسنتَ؛ أما سمعتَ قول الشاعر:

فلا يعدونْ سري وسرُّك ثالثاً ألا كلُّ سرٍّ جاوز اثنين شائعُ[41]

ب ـ قال له أحدهم يوماً: زعم بعض الناس ان أبا طالب مات كافراً، فقال: «كذبوا؛ كيف يكون كافراً وهو يقول:

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمداً نبياً كموسى خُطَّ في أول الكُتبِ

وفي حديث آخر قال: كيف يكون أبو طالب كافراً وهو يقول:

(٤١) الكافي: ٢/٢٢٤.

لقد علموا أن ابننا لا مكذّب لدينا ولا يعبأ بقيل الأباطل

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للارامل[42]

ج ـ كان عنده ذات يوم قوم يحدثهم ويحدثونه، «إذ ذكر رجلٌ منهم رجلاً فوقع فيه وشكاه، فقال له أبو عبدالله ـ ع ـ: وانّ لك بأخيك كله، و(أيُّ الرجال المهذَّبُ)»[43]، يشير الى قول النابغة الذبياني:

ولستَ بمستبقٍ أخاً لاتلمُّه على شعثٍ، أيُّ الرجال المهذَّبُ

د ـ جاء في أثناء حديثٍ مرويّ عن الامام الصادق ـ ع ـ انه قال: «لكن حجر بن زائدة وعامر بن جذاعة أتياني فشتماه [يعني أحد أصحابه] عندي، فقلت لهما: لاتفعلا فاني أهواه؛ فلم يقبلا، فسألتهما وأخبرتهما ان الكفَّ عنه حاجتي، فلم يفعلا. . . . أمَا اني لو كرمتُ عليهما لكرم عليهما مَنْ يكرم عليَّ، ولقد كان كُثيِّر عَزَّة في مودته لها أصدق منهما في مودتهما لي؛ حيث يقول:

لقد علمتْ بالغيب اني أخونها اذا هو لم يكرم عليَّ كريمُها[44]

هـ ـ «عن جعفر بن محمد ـ عليهما السلام ـ: اذا قال لك أحدٌ: تزوَّجتُ نَصفاً؛ فاعلم ان شرَّ النُصفين ما بقي في يده،

(٤٢) الكافي: ١/٤٤٨ ـ ٤٤٩.

(٤٣) الكافي: ٢/٦٥١. وجملة (أي الرجال المهذب) من أمثال العرب، كما في أمثال أبي عبيد: ٥١ والمستقصى: ١/٤٤٩، ونصّ الميداني في مجمع الأمثال: ١/٢٥ على أن النابغة أول من قال ذلك.

(٤٤) مجمع الزوائد: ٦/١٢٤ و١٣٠.

وأنشد:

وإنْ أتوكَ وقالوا إنها نَصَفٌ فإن أطيب نصفيْها الذي ذهبا[45]

★★★

ونتنقل الآن ـ بعد هذا البيان الشامل ـ على ايجازه ـ لتراث الامامة المتعلق بمعارف الاسلام وحقائق الدين ومسائل الاعتقاد وامور البحث والفكر المتفرعة عن مجموع ذلك ـ الى صفحة اخرى من صفحات ذلك التراث النفيس المبدع؛ يقف أمامها الباحث مدهوشاً مبهور الانفاس، وقد يساور البعضَ الشكُّ في صحة انتساب ذلك للامام الصادق (ع) لو لم يكن من المسلّمات التي لا يرقى اليها تردد ولا ريب لدى مؤرخي السلف وباحثي عصرنا الموضوعيين المعنيين بتاريخ الفكر والحضارة.

انه تراث الامام المرتبط بفروع العلوم الطبيعية والتطبيقية؛ كالطب والصيدلة؛ والحيوان والنبات؛ والكيمياء والمعادن؛ والفلك وأسرار الكون؛ وسائر ما يتعلق بذلك من شؤون وشجون. وقد أثار هذا الجانب اعجاب العلماء والمختصين على مرّ القرون، كما أثار شيئاً من الشك لدى بعضٍ قليل منهم بدوافع ربما كانت غير سليمة المنشأ، وقد يكون منها ما يستند الى التعصب الديني الأسود الذي يرفض أن يكون المسلمون روادَ العلم في التاريخ، وقد يكون منها ما يمكن عزوه الى التحزب

(٤٥) العقد الفريد: ١١٣/٦

الطائفي الذميم الذي شهدته السنون الخالية؛ في إبعاد كل فضيلةٍ عن أئمة أهل البيت وأصحابهم، ما استطاعوا الى ذلك سبيلا.

ولكن الحقيقة الكبرى ـ على الرغم من ضباب الشكوك والشبهات ـ تصرخ مدوّيةً بأن الامام الصادق ـ كما يقول الشيخ الأزهري محمد أبو زهرة ـ «كان قوة فكرية في هذا العصر، لم يكتف بالدراسات الاسلامية وعلوم القرآن والسنة والعقيدة، بل اتجه الى دراسة الكون وأسراره، ثم حلّق بعقله القوي الجبار في سماء الأفلاك ومدارات الشمس والقمر والنجوم»، و«عُني عناية كبرى بدراسة النفس الانسانية. واذا كان تاريخ الفلسفة يقرر أن سقراط قد أنزل الفلسفة من السماء الى الانسان، فالامام الصادق قد درس السماء والأرض والانسان وشرائع الديّان»[46].

ويقول هذا الشيخ أيضاً:

«ان قوى الامام جعفر العقلية ما كانت لتقف به عند دراسة الفقه والحديث والقرآن، بل انه ـ لتفرغه للعلم والعبادة ـ قد شغل عقله أيضاً بعلم الكون وما اشتمل عليه»[47]، «وله آراء في تكوين الانسان وطب الأجسام، فلم يقتصر ـ رض ـ على طب الأرواح بكلامه الحق، بل تصدى لطب الجسم»[48].

(٤٦) الامام الصادق: ١٠١ ـ ١٠٢.
(٤٧) المصدر نفسه: ٢٩ ـ ٣٠.
(٤٨) المصدر نفسه: ١٨٤.

ويقول الباحث السوري الدكتور محمد يحيى الهاشمي وهو يتحدث عن منهج المنطق التطبيقي الذي كان سبب تقدم العلوم في العصر الحاضر:

«ان جذر هذا المنهج هو عند الامام الصادق وعند جابر بن حيان، والذي انتقل فيما بعد الى غيرهما من مفكري العرب».

«ان بذور هذا المنهج العلمي البديع نجده في مبادىء الامام الصادق وتلميذه جابر اذا أمعنّا فيهما النظر ودرسناهما دراسة متقنة، لأن انتقاد القياس وترك مجال الفكر الحر للاعتبار بالكون وآياته البينات؛ مما يوسّع حقل المعرفة ويفتح آفاقاً جديدة للبحث والتنقيب. هنا لانجد كشفاً تاريخياً هاماً في علاقة جابر ابن حيان بإمامه جعفر الصادق فحسب، بل نجد أن يتبوع هذا المنهج الواقعي الرائع الذي يتجلى لنا في تاريخ الفكر العربي لأول مرة ـ على ما يظهر عند يعقوب بن اسحاق الكندي والفلاسفة الذين أتوا من بعده ـ هو من مصدر الامام الصادق أيضاً»[٤٩].

كما يقول هذا الباحث أيضاً:

«حقاً ان شخصية جعفر الصادق لاتزال غامضة تحتاج الى مَنْ يكشف كنهها من المؤرخين، لا لأهميتها في تاريخ الفكر الاسلامي وتاريخ تطور الفكر البشري فحسب، بل لأن تاريخ

(٤٩) الامام الصادق ملهم الكيمياء: ١٣٨ ـ ١٣٩.

العلوم يتطلب من مجلو كنهها لوجودها على مفترق الطرق.... ومادام يكتنف مثل هذه الشخصية الفذة الظلام فكثير من الحقائق ستظل في طيّ الخفاء؛ وستظل في جهل مدقع في فهم كثير من تراثنا الفكري، لأن التعصب الذميم هو الذي طمس المعالم، ووضع أمامنا سدّاً حائلاً دون تفهُّم كنه الأساسات العميقة في بناء الحضارة العالمي»[٥٠].

وعلى هذا النحو نحا الكتّاب والباحثون المعاصرون الآخرون وهم يتحدثون عن التراث العلمي للامام الصادق (ع) في جوانبه البعيدة عن الدراسات الاسلامية وما يتصل بها من مجالات وآفاق، ولما كان دوري هنا لايتجاوز دور الناقل الأمين لما حرّره ذوو الاختصاص والخبرة في هذه الموضوعات لأني لست من دارسي تلك العلوم ولا من رجالها المتمرسين، فاني أروي تلك النصوص عن مصادرها المذكورة في الهوامش؛ متحرّياً فيها الايجاز والاختصار كما هو منهجي في كل فصول الكتاب ومطالبه، وبامكان الراغب في المزيد أن يرجع الى المصادر التي نقلنا منها هذه المقتطفات للوقوف على التفاصيل الوافية والمعلومات الشافية.

ويتجلى تراث الامام في الطب في عدد من النصوص المأثورة عنه، ولعل من أبرزها ـ أو هو أبرزها حقاً ـ تنبيهه على وجود

(٥٠) المصدر نفسه: ٢٠٧.

الدورة الدموية في الجسم؛ ومعرفته بمجالات حركتها، وذكره لها في ذلك العصر السابق لعصر «هارفي» الذي نُسب اليه اكتشاف هذه الدورة بقرون، ويقول الامام في بيان ذلك:

«فكّر يا مفضّل في وصول الغذاء الى البدن وما فيه من التدبير، فان الطعام يصير الى المعدة فتطبخه وتبعث بصفوه الى الكبد، في عروق دقاق واشجة بينهما، قد جعلت كالمصفى للغذاء لكيلا يصل الى الكبد منه شيء فينكأها، وذلك ان الكبد رقيقة لا تحتمل العنف. ثم ان الكبد تقبله فيستحيل فيها بلطف التدبير دماً، فينفذ الى البدن كله في مجارٍ مهيّأة لذلك؛ بمنزلة المجاري التي تُهيّأ للماء ليطّرد في الأرض كلها. وينفذ ما يخرج منه من الخبث والفضول الى مغايض قد أُعِدّت لذلك، فما كان منه من جنس المرّة الصفراء جرى الى المرارة، وما كان من جنس السوداء جرى الى الطحال، وما كان من جنس البلة والرطوبة جرى الى المثانة. فتأمل حكمة التدبير في تركيب البدن»[٥١].

وفي إشارةٍ منه ـ عليه السلام ـ الى الميكروب والفايروس والعدوى قال في احدى توجيهاته الطبية: «لا يكلّم الرجل مجذوماً الا ان يكون بينهما قدر ذراع»، وفي لفظ آخر: «قدر رمح»[٥٢].

(٥١) توحيد المفضل: ٢٠ ـ ٢١.
(٥٢) وسائل الشيعة: ٨/٤٣١ ـ ٤٣٢.

وكان من جملة تعليماته الطبية أيضاً: إجازته الاستشفاء بواسطة العمليات الجراحية، وكذلك الاستشفاء باستعمال المشروبات السامة، وإن أضرّ ذلك في بعض الحالات أو أدّى الى الموت، فقد جاء في الرواية عنه: أن سائلاً سأله عن الحكم الشرعي في «الرجل يشرب الدواء ويقطع العرق، وربما انتفع به وربما قتله»؟، فقال ـ ع ـ في الجواب: «يقطع ويشرب». وفي حديث آخر عن اسماعيل بن الحسن المتطبب قال: «قلتُ لأبي عبدالله ـ ع ـ: اني رجل من العرب؛ ولي بالطب بصر؛ وطبي طب عربي. . . . فانا نبط الجرح ونكوي بالنار، قال: لا بأس، قلتُ: ونسقي هذه السموم الا سمحيقون والغاريقون، قال: لا بأس، قلتُ: إنه ربما مات، قال: وإن مات»[٥٣].

الى كثير وكثير من النصوص والشواهد التي يضيق بنقلها هذا الكتاب، ومن أراد الاطلاع على توجيهات الامام الطبية والصحية في الوقاية والعلاج فليراجع كتاب توحيد المفضل وأبواب الأطعمة والأشربة من كتب الحديث، ففيها المزيد من ذلك.

أما ما أثر عنه في حقول العلم الاخرى فهو كثير أيضاً، وكان من ذلك: عدّه النبات والأشجار من ذوات الأرواح[٥٤]، كما كان

(٥٣) الكافي: ٨/١٩٣.
(٥٤) توحيد المفضل: ١٠.

من ذلك أيضاً لفته الأنظار الى اعتماد المرئيات على الضوء فلا ألوان بدونه؛ واعتماد المسموعات على الهواء فلا أصوات بدونه، وفي ذلك يقول:

«انظر الآن يا مفضل الى هذه الحواس التي خُصَّ بها الانسان في خَلْقه - الى أن يقول -: فجعل الحواسَّ خمساً تلقى خمساً لكي لايفوتها شيء من المحسوسات. فخلق البصر ليُدرِك الألوان، فلو كانت الألوان ولم يكن بصر يدركها لم يكن فيها منفعة. وخلق السمع ليُدْرِك الأصوات، فلو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها لم يكن فيها أرب. وكذلك سائر الحواس».

«ثم هذا يرجع متكافئاً، فلو كان بصرٌ ولم تكن ألوان لما كان للبصر معنى، ولو كان سمع ولم تكن أصوات لم يكن للسمع موضع. فانظر كيف قدَّر بعضها يلقى بعضاً، فجعل لكل حاسة محسوساً يعمل فيه؛ ولكل محسوس حاسة تدركه».

«ومع هذا فقد جُعِلت أشياء متوسطة بين الحواس والمحسوسات لايتم الحس الا بها كمثل الضياء والهواء، فانه لو لم يكن ضياء يُظهِر اللونَ للبصر لم يكن البصر يدرك اللون، ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت الى السمع لم يكن السمع يدرك الصوت»[٥٥].

★★★

(٥٥) توحيد المفضل: ٢٢ - ٢٣.

وأما الكيمياء فلا مجال للتردد في كونها جعفرية النسب والحسب والمنطلق في تاريخ الاسلام، وقد صرح عدد من قدامى المؤرخين - غير مشككين ولا متوقفين - بأن للامام الصادق كلاماً في صنعة الكيمياء[٥٦]، كما ذهب الى مثل ذلك باحثو العصر الحديث وإن خلط بعضهم وخبط ولم ينتبه الى ما سقط فيه من غلط ووهم. ونلخص فيما يأتي أهم ماوقفنا عليه في هذا الخصوص:

قال الشيخ محمدأبو زهرة:

«يذكر العلماء ان الصادق - رض - تكلم في كثير من العلوم، لم يكن كلامه مقصوراً على علوم الاسلام وما يتصل بها، بل تصدى للكلام في الطب وعلوم الطبيعة. . . . ولاشك ان الخاصة التي اختص بها الامام الصادق ليست هي انه عالم في الكيمياء أو الطبيعة أو الطب، وانما الظاهرة الكبرى فيه. . . . انه كان أبرز أئمة عصره في علوم الاسلام»، و«ان الاتفاق منعقد على أن جابراً كان أول المشتغلين بالكيمياء في المسلمين»، و«ان مؤرخي المسلمين يتفقون على حقيقتين: اشتغال جابربالكيمياء والطبيعة، والثانية صلته بالامام الصادق وانه كان تلميذه»[٥٧].

(٥٦) وفيات الأعيان: ١/٢٩١ وتاريخ أبي الفدا: ٢/٥ وحياة الحيوان: ٢/١٠٣ والأئمة الاثنا عشر: ٨٥.

(٥٧) الامام الصادق: ٢٤٦ - ٢٤٧.

ثم يقول متحدثاً عن رسائل جابر بن حيان في الكيمياء:

«ان كل تشكيك في نسبة الرسائل الى جابر لا يعتمد علمياً على أساس. . . . ونجد أنه يذكر الصادق في هذه الرسائل بما يدل على أنه كان ذا صلة بها، يعلم بمضمونها، ويوجهه في تدوينها»[٥٨].

ويضيف الى ما تقدم مؤكداً:

«ان هذه الرسائل من تأليف جابر، وان الصادق كان يطلع عليها ويقر ما اشتملت عليه ويوجهه فيها، فهي اذن ليست من إملاء الصادق وانما هي من عمل جابر، وان جابراً كان يتلمّس موافقة الامام على كتابته»، و«ان الامام الصادق كان يلم بالعلوم الكونية والطبيعية، لأنه كان يحكم عليها بالصدق أحياناً وبالغموض أحياناً، وان ذلك بلا ريب تصرف العارف بموضوعها»[٥٩].

ويقول الكاتب عبدالرحمن الشرقاوي في أثناء ترجمته للامام الصادق:

«تتلمذ عليه جابر بن حيان، وكان أبوه شيعياً قُتِل دفاعاً عن الحقيقة وفي حب آل البيت، فاصطنع الامام محمد الباقر ـ والد الامام جعفر ـ ذلك الفتى اليتيم، وفقّهه في الدين، حتى اذا ورث جعفر الأمانة أخذ بيد جابر بن حيان وتعهده وحثّه على

(٥٨) الامام الصادق: ٢٤٨.
(٥٩) المصدر نفسه: ٢٥٠.

دراسة علوم الحياة وزوّده بمعمل، وأمره أن يسير كتاباته لينتفع بها الناس، وخصص له وقتاً في كل يوم يتدارسان فيه علوم الطبيعة والكيمياء والطب»[٦٠].

ويقول عالم الكيمياء السوري الدكتور محمد يحيى الهاشمي:

«جابر بن حيان الصوفي الممثل الأول للكيمياء العربية»، وقد «ولد جابر في طوس من أعمال خراسان» بعد سنة ١٠٠هـ/ ٧٢١م، يوم أرسل العباسيون أباه الى هناك للعمل ضد الحكم الاموي، «ثم أُرسل هذا الى الجزيرة العربية للاتصال بقبيلته الأزد»، «ورحل جابر الى الكوفة بعد أن انتصر العباسيون، وقد اتصل بالامام جعفر الصادق وتتلمذ عليه»، و«لدى مطالعتنا للتراث الضخم الذي خلّفه لنا جابر عن الكيمياء نرى اعترافاً صريحاً بأن المعلّم لهذه الصنعة هو الامام جعفر الصادق»[٦١].

ويقول المستشرق كراوس:

«جابر بن حيان الأزدي الكوفي تلميذ الامام الشيعي السادس جعفر الصادق. . . . . ويقول جابر: انه تلقى علومه من سيده جعفر الصادق، ويردها جميعاً الى استاذه هذا الذي يسميه (معدن الحكمة) ويصرح بأنه لم يبق له ـ أي لجابر ـ الا جمعها وترتيبها»[٦٢].

(٦٠) شخصيات اسلامية: ٤١.
(٦١) الامام الصادق ملهم الكيمياء: ٢٩ ـ ٣٠ و٣٥.
(٦٢) دائرة المعارف الاسلامية: ٦/٢٢٨ و٢٣١.

ويقول المستشرق هولميارد:

«ان جابراً هو تلميذ جعفر الصادق وصديقه، وقد وجد في إمامه الفذ سنداً ومعيناً وراشداً أميناً وموجهاً لا يستغني عنه. وقد سعى جابر أن يحرر الكيمياء بارشاد استاذه من أساطير الأولين التي علقت بها من الاسكندرية، فنجح في هذا السبيل الى حد بعيد»[٦٣].

ويقول الدكتور زكي نجيب محمود:

«أما جعفر الذي كثيراً ما يرد اسمه في كتابات جابر مشاراً اليه بقوله: (سيدي) فهناك من يزعم انه جعفر بن يحيى البرمكي، لكن الشيعة تقول - وهو القول الراجح الصدق - انه انما عنى به جعفر الصادق. ونقول انه مرجح الصدق لأن جابراً شيعي، فلا غرابة أن يعترف بالسيادة لامام شيعي، هذا الى وفرة المصادر التي لاتتردد في أن جعفراً المشار اليه في حياة جابر ونشأته هو جعفر الصادق»[٦٤].

ويقول الدكتور محمد محمد فياض وهو يترجم لجابر بن حيان:

«وفي سنة ٧٤٩م انتصر العباسيون على الامويين واستولوا على الخلافة. ورحل جابر الى الكوفة، وتمكن بعد ذلك من أن

(٦٣) الامام الصادق ملهم الكيمياء: ٣٧.
(٦٤) جابر بن حيان: ١٧ - ١٨.

يتصل بالامام جعفر الصادق، وتلقى عنه الكيمياء، ولازمه ملازمة الصديق»[٦٥].

وهكذا تتفق الكلمة على أن جابر بن حيان أول عالم عربي مسلم عُني بالكيمياء والكتابة فيها، ويقول ابن خلدون في خلال حديثه عن علم الكيمياء: ان «إمام المدوّنين فيها جابر بن حيان، حتى انهم يخصونها به فيسمونها: علم جابر»[٦٦]، ويقول الاستاذ برتلو في بحثه الذي نشره بباريس عن الكيمياء عند العرب: «ان اسم جابر ينزل في تاريخ الكيمياء منزلة اسم ارسطو في تاريخ المنطق»[٦٧].

ولقد رأينا اتفاق الكلمة أيضاً على أن هذا العالم الكيميائي الأول لم يكن له استاذ في علمه هذا الا الامام جعفر الصادق (ع).

وعلى الرغم من التسليم بذلك كله وعدم وجود مايدل على خلاف ذلك؛ فان الأمر لم يسلم من شكوك بعض المشككين وأوهام بعض المتوهمين، وكانت مبرة الشك قد بدأت منذ عهد ابن النديم بما روى من ادعاء بعض المدعين بأن تلك المؤلفات المنسوبة الى جابر قد كتبها غيره ونحلها اياه، وردَّ عليها ابن

(٦٥) جابر بن حيان وخلفاؤه: ٣٧.
(٦٦) مقدمة ابن خلدون: ٤٤٧.
(٦٧) جابر بن حيان: ٢٤.

النديم أبلغ ردٍّ وأوجزه فقال:

«ان رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب، ويصنف كتاباً يحتوي على ألفي ورقة، يُتعِب قريحته وفكره بإخراجه؛ ويُتعِب يده وجسمه بنَسْخه، ثم ينحله لغيره - إمّا موجوداً أو معدوماً - ضربٌ من الجهل، وان ذلك لايستمر على أحد ولايدخل تحته مَن تحلّ ساعة واحدة بالعلم. وأيُّ فائدة في هذا وأي عائدة. والرجل له حقيقة، وأمره أظهر وأشهر، وتصنيفاته أعظم وأكثر»[٦٨].

ويعلّق الدكتور زكي نجيب محمود على هذه الشكوك في وجود جابر فيقول:

«هي قصة تتكرر مع كثيرين من نوابغ الفكر.... فهوميروس قد وُجِد، ومايزال يوجد من أنكر وجوده. وشيكسبير قد وُجِد، ومايزال يوجد من أنكر وجوده. وامرؤ القيس قد وُجِد من تشكك في وجوده»[٦٩].

واذن، فجابر بن حيان أمر واقع وحقيقة قائمة لايرقى اليها ريب أو تردد، والشك في وجوده لايقل غرابة عن الشك في أية حقيقة من حقائق التاريخ وأية مسلّمة من مسلّمات الحضارة الانسانية.

---

(٦٨) الفهرست: ٤٢٠.

(٦٩) جابر بن حيان: ١١.

ثم دبّ عشاق التشكيك آنافهم مرة اخرى في هذا الأمر، فزعم المستشرق كاراده فو أنه وقف على رواية تقول: «ان شيخي جابر هما خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى عام ٨٥هـ/ ٧٠٤م... وجعفر الصادق»[٧٠]، وادّعى الباحث روسكا - في خط مضاد لكاراده فو - ان جابرا قد «تعلّم الكيمياء في خراسان... وفي خراسان اجتمعت الصوفية الاسلامية والطب العربي القديم والتنجيم وغير ذلك، ويلزم أن تكون قد انتقلت أيضاً المعارف المصرية عن طريق سورية وأرض الرافدين الى تلك الديار، فانتقل مع ما انتقل فن الكيمياء كذلك»[٧١].

ثم كانت ثالثة أثافي المشككين مزاعم جرجي زيدان في قوله خلال حديثه عن تقدم المسلمين الأوائل في علم الصيدلة:

«ان تقدمهم في الصيدلة تابع لتقدمهم في الكيمياء والنبات، ولاخلاف في أن العرب هم الذين أسسوا الكيمياء الحديثة بتجاربهم ومستحضراتهم، وان أول من اشتغل في نقلها الى العربية خالد بن يزيد نقلها عن مدرسة الاسكندرية، وعنه أخذ جعفر الصادق»[٧٢].

والحق أنه ليس في كل هذه المزاعم مايمكن أن يقبل، بل ليس فيها مايحتمل توهمه أو افتراضه أيضاً، وحسبنا في دحض ما ادعاه

---

(٧٠) دائرة المعارف الاسلامية: ٦/ ٢٢٧.

(٧١) الامام الصادق ملهم الكيمياء: ٤١ - ٤٢.

(٧٢) تاريخ التمدن الاسلامي: ٣/ ١٨٥.

روسكا أن نقرأ تعليقة الدكتور محمد يحيى الهاشمي على ذلك؛ وقد ختمها بقوله:

«من الغريب أن يصدر هذا العالم حكمه قبل نشر آثار جابر ودراستها دراسة متقنة، فحكمه اذن ظنون وتخمينات لاتمت الى اليقين بصلة»[٧٣]، لأن جابراً قد أعلن في كل رسائله ومؤلفاته انه قد استقى جميع ذلك من سيده جعفر، وان مصدر معارفه ومعلوماته هو هذا الاستاذ بالذات، وليس له من استاذ غيره.

وأما ادعاء ان خالد بن يزيد كان من أساتذة جابر فهو من الأوهام الكبرى التي يدعونا أدب التعبير الى تسميتها وهما، ولانقول غلطاً محضاً، لأن خالداً الاموي قد مات سنة ٧٠٤م كما ذكر الدكتور زكي نجيب محمود، وان جابراً قد ولد سنة ٧٥٠م كما ذكر الدكتور زكي نفسه[٧٤]، أو بعد سنة ٧٢١م في أغلب الظن، فكيف تمت هذه التلمذة؟ وكيف يمكن أن يكون هناك لقاء بين الرجلين؟ وكيف انطلى الأمر على الدكتور زكي فاحتمل ذلك أو دار في خلده؟!!!.

وأما مقولة جرجي زيدان في أخذ جعفر علم الكيمياء من خالد فهو من الأوهام العظمى أيضاً، لأن ولادة جعفر كانت في سنة ٧٠٤م أو سنة ٧٠٠م على قول، فكيف حصلت تلمذة

(٧٣) الامام الصادق مذهبه الكيمياء: ٤٣.
(٧٤) جابر بن حيان: ١٥ و١٦.

المولود في سنة مّا على المتوفى في تلك السنة؛ أو تلمذة ابن ثلاث سنوات ـ وهو في الحجاز ـ على ساكنٍ في بلاد الشام؟!!!.

انها مجموعة تخرصات وتخيلات لاتستند الى غير الوهم؛ أو الى دوافع اخرى لايعلمها الا الله المطلع على السرائر، وحسبنا من كل مانقدم هو الايضاح والتبيين لطالبي الصواب والراغبين في معرفة الواقع.

هذا كله، اذا صحّ ان خالد بن يزيد كان على معرفة بالكيمياء، كما ادعى مؤرخوه، ولكن الأمر موضع توقف بل رفضٍ عند المحققين من الباحثين، فقد ذكر الحافظ الذهبي ـ وهو ممن لايتهم بالعداء للأمير خالد ـ في هذا الصدد مالفظه:

«قال ابن خلكان: كان خالد يُعْرَف بالكيمياء، وصنّف فيها ثلاث رسائل. وهذا لم يصح»[٧٥].

وقال ابن خلدون في فصل الكيمياء من مقدمته:

«وربما نسبوا بعض المذاهب والأقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم»، ومن المعلوم البين «ان البداوة اليه أقرب، فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة... اللهم الا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبّه باسمه»[٧٦].

(٧٥) سير أعلام النبلاء: ٤/٣٨٣.
(٧٦) مقدمة ابن خلدون: ٤٤٧.

وقال الباحث المعاصر الدكتور محمد يحيى الهاشمي:

«لاندري الى أي درجة تصل صحة انتساب خالد الى الكيمياء، ولقد عثر الاستاذ روسكا على مؤلف يُنسب لخالد، ولكن لدى البحث والتمحيص تبيّنَ له ان هذا الكتاب منتحل»[77].

أما التعكز على ماجاء في الفهرست لاثبات هذا الأمر لخالد فغير سليم، لأن القدر المتيقن المستفاد من كلام ابن النديم أن نقل بعض كتب الصنعة وترجمتها من اللسان اليوناني والقبطي الى العربية كان بأمر خالد هذا وتمويله، وان «هذا أول نقل كان في الاسلام من لغة الى لغة»[78]. وليس في ذلك مايدل دلالة قاطعة على كون خالد من العارفين بالكيمياء والصنعة، وانما هو الأمر بالنقل والمموّل له كما وقع في عصر الرشيد والمأمون؛ إذ لم ينسب اليهما العلم بمضامين تلك الكتب المترجمة.

★★★

وعلى كل حال، فان تراث الامام الصادق (ع) الفكري - كما وقفنا على خطوطه العريضة فيما تقدم - كان أوسع من أن تستوعب عرضه صفحات محدودة كهذه الصفحات؛ ومساحة ضيقة كمساحة هذا الكتاب، ولذلك نكتفي هنا بما أسلفنا ذكره

(٧٧) الامام الصادق ملهم الكيمياء: ٢٩.
(٧٨) الفهرست: ٣٠٣.

من اللمحات والشذرات، بأمل أن تكون قادرة على ارشاد القارىء اليه الى آفاق ذلك الموروث الثقافي العظيم، الشامل لجميع مجالات الفكر الانساني؛ والفاتح لأبواب الحضارة والتقدم أمام مسلمي ذلك اليوم؛ وهم يتطلعون الى مستقبل زاهر وغدٍ مبني على اسس راسخة من العلم والمعرفة وأدوات الانطلاق.

ولم يبق لدينا مما يجب قوله في هذا الصدد الا أن نقف وقفة متريثة فاحصة عند تلك الكتب والمؤلفات التي نسبتها المصادر القديمة والحديثة الى الامام الصادق (ع)، لنرى مقدار الصحة والثبوت في تلك النسبة، ولنضيف - من ثَمّ - ما صحّ منها وثبت الى تراث الامامة الزاهر الذي نحن بصدد استعراض موضوعاته وفصوله، ومعرفة مصادره واصوله:

١ و٢ - كتابا «الجفر» و«الجامعة»:

أ - كتاب الجفر:

لعل أول مَنْ نسب هذا الكتاب الى الامام الصادق (ع) هو ابن قتيبة في كتابه أدب الكاتب[79]، وقال فيه كما نُقل عنه:

(٧٩) أستظ محقق الكتاب محمد محي الدين عبدالحميد الفقرة المتعلقة بالجفر من أصل كتاب أدب الكاتب في طبعته له بتحقيقه في القاهرة في سنة ١٣٨٢هـ، وتابعه على اسقاطه ناشره الآخر علي فاعور الذي سمى نفسه شارحاً ومعلقاً في طبعة بيروت للكتاب في سنة ١٤٠٨هـ.

«كتاب الجَفْر: جِلدُ جفرٍ[80] كَتَب فيه الامام جعفر بن محمد الصادق لآل البيت كلَّ ما يحتاجون الى علمه وكلَّ مايكون الى يوم القيامة»[81].

وهو الذي يشير اليه الشاعر أبو العلاء المعري في أواخر القرن الرابع بقوله:

لقد عجبوا لأهل البيت لمّا ... أتاهم عِلمُهم في مَسْك جَفْرِ
ومرآة المنجّم وهي صغرى ... أرَتْهُ كلَّ عامرةٍ وقفرِ[82]

ثم تكررت نسبة هذا الكتاب للامام الصادق في المؤلفات المتأخرة عن ذلك التاريخ[83].

وقال ابن خلدون عند الكلام على الملاحم ومايرجع الى بقاء الدنيا ومدتها والى الدول وأعمارها:

«وقع لجعفر وأمثاله من أهل البيت كثير من ذلك، مستندهم فيه ـ والله أعلم ـ الكشف بما كانوا عليه من الولاية، واذا كان مثله لاينكَر من غيرهم من الأولياء. . . . فهم أَوْلى الناس بهذه الرتب الشريفة والكرامات الموهوبة»[84].

---

(٨٠) الجَفْر: ولد الماعزة اذا بلغ أربعة أشهر وفُصل عن امه.

(٨١) حياة الحيوان: ١/١٩٧ ـ ونصٌّ على نقل ذلك من أدب الكاتب ـ، ومثله في نور الأبصار: ١٣٣ ودائرة المعارف الاسلامية: ٧/٤٦.

(٨٢) لزوم مالا يلزم: ٣٢٢.

(٨٣) الفصول المهمة: ٢٠٥ وكشف الظنون: ٢/١٤٠٩ وهدية العارفين: ١/٢٥١.

(٨٤) المقدمة: ٢٧٧.

ثم قال بعد ذلك وهو يتحدَّث عن كتاب الجفر وما فيه من أخبار الدول:

«اعلم ان كتاب الجفر كان أصله ان هارون بن سعيد العجلي ـ وهو رأس الزيدية ـ كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم؛ ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص. وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الأولياء، وكان مكتوباً عند جعفر في جلد ثور صغير، فرواه عنه هارون العجلي وكتبه وسماه (الجفر) باسم الجلد الذي كتب فيه، لأن الجفر في اللغة هو الصغير. وصار هذا الاسم علماً على هذا الكتاب عندهم. . . . وهذا الكتاب لم تتصل روايته. . . . ولو صحَّ السند الى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه؛ فهم أهل الكرامات. وقد صحَّ عنه أنه كان يحذِّر بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصح كما يقول، وقد حذَّر يحيى ابن عمه عن مصرعه؛ وعصاه فخرج وقُتل بالجوزجان كما هو معروف. واذا كانت الكرامة تقع لغيرهم فما ظنك بهم علماً وديناً وآثاراً من النبوة وعنايةً من الله بالأصل الكريم»[85].

وفي العصر الحديث أورد المستشرق بروكلمان اسم هذا

---

(٨٥) المصدر نفسه: ٢٨٠.

الكتاب وشك في نسبته الى الامام الصادق[٨٦]، وكذلك شك المستشرق ماكدونالد في النسبة واستدل على شكه بأمرين: (أولهما) عدم وجود دليل لديه على استعمال كلمة الجفر بمعنى الرَّق أو الجلد، و(ثانيهما) عدم ذكر ابن النديم للجفر؛ مع أنه «أشار في مواضع كثيرة من كتابه الى جعفر الصادق. . . . ووصل بينه وبين جابر بن حيان الكيميائي في غير ما تردد»[٨٧].

والحق أنه ليس في هذين الأمرين ما يصح الاستدلال به على اثبات النفي، إذ لم يفهم المستشرق المذكور ـ فيما سنّاه دليلاً أول ـ سبب استعمال الجفر هنا بمعنى الرق، ومعلوم ان الرق كان يؤخذ من جلود الحيوانات، وان تسمية هذا النوع من الرق بالجفر مرتبطة بنوع الحيوان الذي انتُزع جلده للكتابة عليه، وهو ـ كما جاء في اللغة ـ ولد المعز.

وأما استدلاله بعدم ذكر ابن النديم للكتاب فغير وارد أيضاً، لأن سبب عدم الذكر راجع في الحقيقة الى كون هذا الكتاب متعلقاً بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) كما يأتي بيانه، ولذلك لايمكن عدُّه من كتب الامام الصادق ولا يصح انتسابه بهذا المعنى اليه، وانما كان بحوزته بحكم كونه وارث آبائه، ثم انتقل بعد وفاته الى أولاده، وقد ذكره الامام الرضا (ع) مستشهداً بما

(٨٦) تاريخ الأدب العربي: ١/ ٢٦٠.
(٨٧) دائرة المعارف الاسلامية: ٧/ ٤٧.

ورد فيه جواباً للمأمون حينما كاتبه بشأن ولاية العهد، ولذلك قال الدكتور محمد يحيى الهاشمي: «هذا الكتاب ليس من تأليف الامام الصادق، ولاتوجد أية رواية تنسب ذلك اليه، وجل ما في الأمر أنه كان في حوزته إن صحت الرواية»[٨٨].

والصحيح الثابت ان هذا الكتاب لم يكن من تحرير الامام الصادق (ع) وتدوينه، وانما هو من تدوين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)[٨٩]، ثم توارثه أولاده الأئمة (ع) إماماً بعد إمام، ولكنه بقي مستوراً لديهم لم يُعرَف خبره بين الناس الا في عصر الامام الصادق، حينما توفر له هامش من الحرية والاطمئنان اثناء الفترة التي شهدت انهيار الدولة الاموية وانشغال العباسيين ببناء دولتهم الجديدة، فشاع حينذاك أمره؛ واشتهر ذكره.

وتجمع الروايات المنقولة عن الامام الصادق على أنه كان يقول: «عندنا الجفر»، وتدل كلمة «عندنا» بصراحة على كونه موجوداً عنده من مواريث آبائه، كما يبدو من تلك الروايات المعنية بتراث الأئمة من الجفر والجامعة ومصحف فاطمة ـ ع ـ[٩٠]: ان الجفر جفران: الجفر الأبيض، وهو «وعاء من أدم»،

(٨٨) الامام الصادق ملهم الكيمياء: ١٧١.
(٨٩) ذكر المستشرق بروكلمان كتاب الجفر في عداد الكتب المنسوبة لعلي ـ ع ـ. تاريخ الأدب العربي: ١/ ١٨٢.
(٩٠) مصحف فاطمة (ع): كتابٌ فيه ما يكون من حادث؛ وأسماء كل من يملك الى أن تقوم الساعة؛ وفيه وصية فاطمة إليها، وليس فيه قرآن، وتراجع احاديث الامام الصادق في هذا المصحف في الكافي: ١/ ٢٤٠ و٢٤١ والارشاد: ٢٩٢ والمناقب: ٢/ ٣٢٦ و٣٤٧. وكأنه سمي مصحفاً بناسم ما فيه من الصحف المكتوبة، وجاء في احدى الروايات انه يخط علي ـ ع ـ.

«علموه علماً». فيه «قضايا علي وفرائضه» و«علمُ ما يحتاج الناس اليه» وجميع «الحلال والحرام . . . حتى أرش الخدش»[٩١].

والجفر الأحمر، وفيه السلاح؛ يعني سلاح رسول الله ـ ص ـ وسيفه ودرعه ولواءه وخاتمه»[٩٢].

وقال حاجي خليفة نقلاً من طاشكبري زاده: «ان الخليفة المأمون لمّا عهد بالخلافة من بعده الى علي بن موسى الرضا وكتب اليه كتاب عهده، كتب هو في آخر ذلك الكتاب: نعم؛ الا أن الجفر والجامعة يدلان على أن هذا الأمر لايتم. وكان كما قال، لأن المأمون استشعر فتنة من بني هاشم، فسمّه».

وروى حاجي خليفة ان هذا الكتاب انما سُمّي بالجفر؛ لأن النبيّ (ص) لما أسرّ علياً (رض) بمضامينه وأمره بتدوينها كتبه عليٌّ في جَفْرٍ يعني في رَقّ قد أُخذ من جلد المعز الصغير، فاشتهر بين الناس به.

ثم روى أن الشيخ كمال الدين محمد بن طلحة النصيبيني الشافعي المتوفى سنة ٦٥٢هـ قد ألف مجلداً صغيراً سماه (الجفر الجامع والنور اللامع) ذكر فيه ان «الأئمة من أولاد جعفر يعرفون

(٩١) الكافي: ١/٢٣٩ و٢٤٠ و٢٤١ والارشاد: ٢٩٢ والمناقب: ٢/٣٤٧ وبحار الأنوار: ٤٧/٢٧٢.

(٩٢) الكافي: ١/٢٣٣ و٢٣٦ و٢٤١ والارشاد: ٢٩٢ والمناقب: ٢/٣٤٧ والاحتجاج: ٢٠٢ وبحار الأنوار: ٤٧/٢٧١ و٢٧٢.

الجفر، فاختار من أسرارهم فيه»[٩٣].

وقال الشيخ آقابزرك الطهراني مؤكداً ما تقدم ذكره:

ان وجه تسمية هذا الكتاب بالجفر «انما هو لكونه مكتوباً أولاً في الجفر»، وروى عن الشيخ بهاء الدين العاملي قوله: «قد تضافرت الأخبار بأن النبي ـ ص ـ أملى على عليّ كتابَي الجفر والجامعة، وان فيهما علم ما كان وما يكون الى يوم القيامة»[٩٤]، كما روى عن الشريف الجرجاني قوله في شرح المواقف: «ان الجفر والجامعة كتابان لعلي ـ ع ـ ذكر فيهما على طريقة علم الحروف الحوادثَ التي تحدث الى انقراض العالم، وكان الأئمة المعروفون من أولاده يعرفونها ويحكمون بها»[٩٥].

وليس في كل ماتقدّم مايدعو الى غرابة أو عجب، كما انه لايتضمن ادعاءً من الأئمة (ع) بعلم الغيب الذي انفرد الله تعالى بعلمه ولم يطلع عليه أحداً من أنبيائه ورسله ـ وإن تخيل بعضهم ذلك ـ، وانما هو في حقيقته رواية مباشرة عن رسول الله (ص) كما صرّح بذلك الأئمة وردّدوه وكرّروه، أو كما قال عليٌّ (ع) لأحد أصحابه حينما قال له: «لقد أُعطيتَ يا أمير المؤمنين علم الغيب» فأجابه بصريح اللفظ وواضح الكلام: «ليس هو بعلم

(٩٣) كشف الظنون: ١/٥٩١ ـ ٥٩٢.

(٩٤) الذريعة: ٥/١١٨.

(٩٥) الذريعة: ٥/١١٩.

غيب، وانما هو تعلُّم من ذي علم، علّمه الله نبيَّه فعلّمنيه»[٩٦].

ووردت في كتب الحديث المتداولة بين المسلمين والمعتمدة لديهم روايات متعددة عن عمر بن الخطاب وأبي سعيد الخدري وحذيفة وغيرهم تذكر أن النبي ـ ص ـ صلّى بأصحابه يوماً صلاة العصر ثم قام فيهم خطيباً ـ أوقام فيهم خطيباً بدون ذكر صلاة العصر ـ فلم يدع شيئاً يكون الى قيام الساعة الا أخبرهم به، وفي بعضها: انه حدَّثهم بما هو كائن الى أن تقوم الساعة»، وانه «حفظه من حفظه ونسيه من نسيه»، ونصَّ الترمذي على أنه «حديث حسن صحيح»[٩٧].

ومهما يكن من أمر، فان (الجفر) في أصله اسمٌ لكتاب جمع فيه عليٌّ (ع) أخبار الغيب الذي هو كائن بعد ذلك؛ مما حدَّث به رسول الله (ص) وبيَّنه. ثم تطورت استعمالات هذه الكلمة على مرور الأيام فخرجت عن كونها اسم كتاب معين؛ لتصبح اسماً لما عدُّوه علماً من العلوم المعروفة، وفي ذلك يقول حاجي خليفة:

«ادعى طائفة ان الامام علي بن أبي طالب ـ رض ـ وضع الحروف الثمانية والعشرين على طريق البسط الأعظم في جلد الجفر، يُستَخرَج منها بطرق مخصوصة وشرائط معيَّنة ألفاظٌ

(٩٦) نهج البلاغة: ١/٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٩٧) يراجع في هذه الأحاديث: صحيح البخاري: ٤/١٢٩ وسنن أبي داوود: ٢/٤١٠ وسنن الترمذي: ٤/٤٨٣ ـ ٤٨٤ ومسند أحمد: ٤/٢٥٤ و٥/٣٨٥ و٣٨٩ و٤٠١.

مخصوصة يُستَخرَج منها ما في لوح القضاء والقدر. وهذا علمٌ توارثه أهل البيت ومَنْ ينتمي اليهم ويأخذ منهم من المشايخ الكاملين، وكانوا يكتمونه عن غيرهم كل الكتمان. وقيل: لايقف في هذا الكتاب حقيقة الا المهدي المنتظر خروجه في آخر الزمان»[٩٨].

ويقول الفاروقي التهانوي عن الجفر:

«هو علمٌ يبحث فيه عن الحروف من حيث هي بناء مستقل بالدلالة. ويسمى بعلم الحروف وبعلم التكسير أيضاً، وفائدته الاطلاع على فهم الخطاب المحمدي الذي لايكون الا بمعرفة علم اللسان العربي. . . . ويعرف من هذا العلم حوادث العالم الى انقراضه»، ثم نقل عن شارح المواقف قوله: «ولمشايخ المغاربة نصيب من علم الحروف ينتسبون فيه الى أهل البيت، ورأيتُ أنا بالشام نظماً أشير فيه بالرموز الى احوال ملوك مصر، وسمعتُ انه مستخرج من ذينك الكتابين [يعني الجفر والجامعة]»[٩٩].

ويقول الشيخ آقابزرك الطهراني عن علم الجفر:

انه «آلة يستعلم بها الحوادث على طريق الحدس من الحروف الهجائية، حيث يثبتون لكل منها خواصَّ؛ وفي اجتماع كلٍّ منها

(٩٨) كشف الظنون: ١/٥٩١.

(٩٩) كشاف اصطلاحات الفنون: ١/٢٨٧ ـ ٢٨٨.

مع الآخر تأثيرات تحصل من تفاعل خاصياتها. وقد كُتب في هذا الفن قديماً وحديثاً كتبٌ كثيرة أدرج فيها مؤلفوها تحقيقاتهم وتجريباتهم وحدسياتهم، وكلٌ ينسب أصل هذا العلم الى النبي - ص - والأئمة - ع -»[101].

وخلاصة القول: ان أصل كتاب الجفر كما ترشدنا اليه النصوص الثابتة انما هو من تدوين علي - ع - لما أملاه عليه النبي - ص - أو أخبره به من المغيبات الآتية، منزّهاً عن كل ما أضيف أو ألحق. وهذه الحقيقة الواضحة في العصور المتأخرة من شؤون ومصطلحات لاتمت الى ذلك الأصل بصلة أو ارتباط، كـ«البسط الأعظم» و«خواص الحروف» و«تأثيرات تفاعل الخاصيات». ولقد ابتعد الدميري عن الصواب كثيراً حين قال: «وكثير من الناس ينسبون الجفر الى علي بن أبي طالب - رض -، وهو وهم»، والصواب ان الذي وضعه جعفر الصادق»[102]، والصواب انما هو في عكس ما صوّب كما أسلفنا وان علياً هو الراوي والمدوّن وليس الواضع له.

ولعل أغرب ما قرأت في هذا الشأن ما ذهب اليه الشيخ محمد أبو زهرة تعليقاً عن الجفر فقال:

«اننا ننفي نسبة الكلام في الجفر الى الامام الصادق؛ لأنه

(١٠١) الذريعة: ٥/١٢٠.

(١٠٢) حياة الحيوان: ٢/١٠٣.

يتعلق بعلم الغيب، والله سبحانه قد انفرد وحده بعلم الغيب، ولا يعطي الا بعض الأنبياء ليثبتوا به رسالتهم»، «وعندي ان الذين أدخلوا فكرة الجفر عند الامامية الاثني عشرية هم الخطابية أتباع أبي الخطاب، فقد جاء في الخطط المقريزية: زعمت الخطابية باجمعها أن جعفر بن محمد الصادق قد أودعهم جلداً يقال له جفر؛ فيه كل ما يحتاجون اليه من علم الغيب وتفسير القرآن»[103].

وكان الأولى بالشيخ المذكور أن لا يتعجل في اصدار الحكم فينسب الأمر برمته الى الخطابية أو الغلاة أو من لفّ لفهم، بل كان المأمول منه أن يتروى قليلاً فيستحضر في ذهنه الأحاديث الصريحة الناصّة على أن النبي - ص - قد أخبر من كان حوله من الصحب بما هو كائن الى قيام الساعة. أو أن الأولى به أن يكون في الأقل كابن خلدون في نسبة العلم بهذه المغيّبات الى الأئمة على طريق الكرامة والكشف لأنهم «أهل الرتب الشريفة والكرامات الموهوبة» كما قال، وإن كنا لا نتفق مع ابن خلدون في هذا التخريج، لاعتقادنا بأنه علم غيب مأثور عن النبي - ص -، وقد حدّث به أصحابه فحفظه من حفظه ونسيه من نسيه»، وكانت احدى مآثر علي - ع - أن يحفظ ما سمع فيدوّنه على الجفر، ثم يورّث ذلك المكتوب لأولاده الأئمة من بعده.

(١٠٣) الامام الصادق: ٣٥ و٣٧.

ب ـ الجامعة :

وهي ـ كما ورد في الرواية عن الامام الصادق ـ : «صحيفة طولها سبعون ذراعاً . . . . باملاء رسول الله ـ ص ـ من فلق فيه وخطّ عليّ بيمينه ، فيها كل حلال وحرام وكل شيء يحتاج الناس اليه حتى الأرش في الخدش»[103]، وفي رواية اخرى عنه أيضاً : «ان عندنا كتاباً باملاء رسول الله ـ ص ـ وخطّ عليّ ـ ع ـ ؛ صحيفة فيها كل حلال وحرام»[104].

وقد تكرر في الأحاديث المروية عن الأئمة ذكر «كتاب عليّ» والاستشهاد بما ورد فيه[105]، وكأن المراد به كتاب الجامعة هذا أو كتاب الجفر المتقدم .

ووهم حاجي خليفة في قوله : بأن «الجامعة اسم كتاب في الجفر منسوب الى الامام جعفر الصادق»[106]، والصحيح ما ذكرناه من كونها صحيفة من املاء النبي (ص) وخط عليّ (ع) فيها كل حلال وحرام[107]. وقال المستشرق ماكدونالد بعد

(١٠٣) الكافي: ١/ ٢٣٩ و٢٤١ والارشاد: ٢٩٢ والمناقب: ٢/ ٣٤٧ وبحار الأنوار: ٤٧/ ٢٧١ .
(١٠٤) الكافي: ١/ ٥٧ و٢٤٢ .
(١٠٥) الكافي: ٢/ ٧١ و١٣٦ و٢٥٩ و٢٧٨ و٣٤٧ و٤٨٦ و٦٦٦ .
(١٠٦) كشف الظنون: ١/ ٥٧٧، ومثله في هدية العارفين: ١/ ٢٥١
(١٠٧) الذريعة: ٥/ ١١٩ .

حديثه عن كتاب الجفر : «والجامعة كتاب آخر مماثل للجفر يتردد ذكره في هذه المناسبة»[108].

والمستفاد من مجموع النصوص المماثلة فيما يخص هذين الكتابين ان (الجفر) يحوي ما يتعلق بما هو كائن من امور الدنيا وتقلبات الأيام ؛ وشؤون الدول والحكام ؛ وما ارتبط بذلك وتفرّع عنه من أسماء ومسميات ، وان (الجامعة) تضم الأحكام الشرعية والفروع الفقهية وشؤون الحلال والحرام في الاسلام حتى الأرش في الخدش .

ويعترف الشيخ محمد أبو زهرة وهو يتحدث عن كتاب الجامعة : «ان علياً ـ رض ـ كان يكتب بعض المذكرات ، وكانت في قرابة سيفه مذكرة عن الديات ومقاديرها»[109].

ويقول بعد استعراض الظروف السياسية المعادية لأهل البيت في العصر الاموي : «ان ذلك يتقاضانا أن نفرض أن تكون ثمة مجموعة عند آل البيت حملها أولاد علي ـ كرم الله وجهه ـ ثم حملوها أولادهم من بعدهم . . . . وربما كانوا يستخفون به أحياناً ويعلنونه أحياناً ، ومهما يكن فقد كان جزء كبير من علم آل البيت هو علم عليّ ؛ آل اليهم من تركته المثرية»[110].

ويقول أيضاً :

(١٠٨) دائرة المعارف الاسلامية: ٧/ ٤٧ .
(١٠٩) الامام الصادق: ٩٤ .
(١١٠) المصدر نفسه: ١٦٤ .

«كانت قضايا علي وفتاويه وآراؤه كلها في آل بيته الكرام، يتناقلونه خلفاً عن سلف، ويتدارسونه ويخرّجون عليه»[111].

ولكن الشيخ المذكور على الرغم من اقراره واعترافه الماثل يناقض ذلك ويخالف ما سبق منه ذكره فيقول:

«ان ما ينسب الى عليّ إن كان قد كتبه في عصر النبي ـ ص ـ باملائه فذلك موضع نظر واختلاف بين الامامية والسنية، ولعل ذلك لا يتفق مع حياة علي ـ رض ـ والنبي ـ ص ـ حيث بين ظهراني المسلمين، لأن علياً بطل الاسلام كان منصرفاً للجهاد فمرة يذهب على رأس سرية، ومرة يرسله على رأس جيش، فهو بين حركة دائبة لغوب لا تصرفه الى كتابة الأحاديث إملاء»[112].

وهذا الكلام ـ إذ يصدر من باحث نشهد له بالعلم والفضل ـ غريب جداً الى أقصى حدود الغرابة، لأننا عندما ندرس السيرة النبوية الشريفة ومواقف علي (ع) خلالها لانجد له تلك «الحركة الدائبة اللغوب» التي لاتتيح له الحضور في مجالس النبي (ص)؛ ولا تفسح له وقتاً أو مجالاً لسماع خطبه وتدوين أماليه وكتابة ما يتحدث به عن عالم الغيب أو أحكام الشريعة، بل اجمعت الروايات التاريخية على أن حضوره في معارك الاسلام ومشاركته في جهاد الكفار والمشركين كان محصوراً في دائرة الحروب الكبرى

(١١١) المصدر نفسه أيضاً: ١٧٩ ـ ١٨٠.

(١١٢) الامام الصادق نفسه: ٤٢٦.

والمعارك الفاصلة، فلم يسجّل له غياب عن المدينة المنورة فيما بين معركتي بدر واحد ـ مثلاً ـ أو بين معركتي احد والأحزاب؛ الا في النادر النادر من الأيام.

٣ ـ كتاب التوحيد:

وهو كتاب يعنى بمعرفة وجوه الحكمة في انشاء العالم السفلي وبيان أسرار موجوداته واختلاف أنواعه وأجناسه ودقائق الفروق في كل ذلك، وقد أملاه الامام على المفضل بن عمر الجعفي الكوفي المتوفى بعد سنة ١٨٣ هـ ـ وهو أحد أصحاب الامام الذين أورد السلف رواياتهم في مجموعاتهم الحديثية؛ وإن أخضعوها كغيرها من الأحاديث لقواعد الرواية والدراية وضوابطها المقررة ـ، فكتب المفضل تلك الأمالي بخطه، وحدّث به محمد بن سنان فرواه عنه[113]، ثم اشتهر بين الناس بعد ذلك باسم «توحيد المفضل».

وكان هذا الكتاب معروفاً لدى المؤرخين والباحثين منذ القرون الأولى، وقد ذكره النجاشي ـ في النصف الأول من القرن الخامس ـ وسمّاه «كتاب فكّر كتابٌ في بدء الخلق والحثّ على

(١١٣) هناك من المؤرخين مَنْ ضعّف المفضل بن عمر ومحمد بن سنان وقدح فيهما، ولكن المجلسي في بحاره: ٣/٥٥ ـ ٥٦ يذكر ان القرائن من الأخبار الكثيرة على قدرهما وجلالة شأنهما.

الاعتباره، وذكر أنه يرويه وبعض كتب المفضل الاخرى عن أبي عبدالله بن شاذان عن أحمد بن محمد بن يحيى عن أبيه عن عمران بن موسى عن ابراهيم بن هاشم عن محمد بن سنان عن المفضل[114]، وكان تسمية النجاشي الكتاب بـ(فكّر) ناشئة من تكرار ما ورد فيه على لسان الامام مخاطباً المفضل: «فكر يا مفضل» و«لو تفكرتَ» و«أطل الفكر».

كذلك ذكره السيد علي رضي الدين آل طاووس - في القرن السابع - وسمّاه: كتاب المفضل بن عمر الذي رواه عن الصادق في معرفة وجوه الحكمة في انشاء العالم السفلي واظهار أسراره[115]، وأجاز الشيخ محمد الحر العاملي - في القرن الحادي عشر - روايته عنه لتلميذه الشيخ محمد فاضل بن محمد مهدي المشهدي، وذكران سند روايته للكتاب يتصل الى الصدوق ومنه عن محمد بن الحسن بن الوليد عن الحسن بن متيل عن أحمد بن أبي عبدالله عن أبيه عن محمد بن سنان عن المفضل[116].

وأورد الشيخ محمد باقر المجلسي نصّ الكتاب في موسوعته بحار الأنوار - في القرن الحادي عشر أيضاً - وسماه «الخبر المشتهر بتوحيد المفضل بن عمر»، وكانت لديه نسخ متعددة من الكتاب كما يشير الى ذلك في خلال ايراد النص وشرح بعض

(١١٤) رجال النجاشي: ٢٩٥ - ٢٩٦.
(١١٥) الأمان: ٧٨ وكشف المحجة: ٩٠.
(١١٦) بحار الأنوار: ١١٠/ ١١٩ - ١٢٠.

مفرداته[117].

وذكره في عصرنا الحاضر كلٌّ من المستشرق بروكلمان والشيخ الطهراني[118]، ولعله هو المشار اليه في بعض المصادر المعنية بترجمة الامام الصادق بقولهم: «له كلام نفيس في التوحيد»[119].

وقد طُبع الكتاب عدة مرات، وترجم الى الفارسية عدة ترجمات، وله أكثر من شرح[120].

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة بعد ايراد فقرات من هذا الكتاب:

«وليس عندنا ما يوجب ردّ نسبة هذه الرسالة الى الامام الصادق. . . . وان أقوال المؤرخين تضافرت على أن جابر بن حيان كان ذا صلة وثيقة بالامام الصادق. . . . واقتبس من علمه الكثير. وتضافرت أقوالهم أيضاً على أنه تحدّث اليه في طبائع الاشياء وخواصّها ومَزْج بعضها ببعض. وان هذا يومىء بأن الرسالة التي نقلنا عنها الفقرات السابقة لها شواهد ترجّح صدق ما اشتملت عليه»[121].

(١١٧) بحار الأنوار: ٣/ ٥٧ - ١٥١.
(١١٨) تاريخ الأدب العربي: ١/ ٢٦٠ - ٢٦١ والذريعة: ٤/ ٤٨٢.
(١١٩) مرآة الجنان: ١/ ٣٠٤ وينابيع المودة: ٣٨٠.
(١٢٠) الذريعة: ٣/ ٩١ و٤٨٢ و٤٨٣ وهامش ص٢٨ من كتاب طب الامام الصادق (ع) للشيخ الطبيب محمد الخليلي.
(١٢١) الامام الصادق: ٣٢.

ويقول الدكتور محمد يحيى الهاشمي بعد استشهاده بنصوص من هذا الكتاب:

«حقاً ان كل ما يورده المفضل عن الامام الصادق جدير بالدراسة والاهتمام»، وانا «نجد في رسالة توحيد المفضل كلمة صريحة عن الكيمياء» ويتساءل بعد ذلك قائلاً: «أوليس الذي أوحى هذه الأفكار السامية للاعتبار بالآيات الكونية غير عاجز أن يوحي الى جابر بن حيان ما أوحى». ثم يقارن بين أفكار هذا الكتاب وكتاب الدين والعلوم الطبيعية للفيزيائي الشهير ماكس بلانك المطبوع في برلين سنة ١٩٣٨م ويقول: «بهذه المقارنة تكون لرسالة توحيد المفضل قيمة عصرية جديدة»[١٢٢].

ويقول الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة مدير دار الحديث بمكة المكرمة وهو يقدّم لنشرته لهذا الكتاب في سنة ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م:

«كنتُ رأيتُ عند بعض الاخوان رسالة تسمى (التوحيد) للامام جعفر الصادق ـ رض ـ يذكر فيها آيات الله في الأنفس والآفاق. . . . فرأيتُ ان الحاجة ملحّة لنشر هذه الرسالة القيمة. . . . وقد صححتها على قدر الطاقة»[١٢٣].

---

(١٢٢) الامام الصادق ملهم الكيمياء: ١٧٤ ـ ١٧٦.

(١٢٣) كتاب التوحيد ـ طبعة الشيخ المذكور: ٣ ـ ٤.

وكان محمد راغب الطباخ الحلبي قد نشر كتاب التوحيد هذا في سنة ١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٨م؛ مطبوعاً بالمطبعة العلمية في حلب؛ باسم (الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير) وعزاه لعمرو بن بحر الجاحظ.

ومع أن الكتاب معزوٌّ للامام الصادق وراويه المفضل بن عمر منذ القرن الخامس الهجري كما أسلفنا؛ ومشهور بذلك في فهارس المصنفات وفي صدر طبعاته المتقدمة على تاريخ طبعة الطباخ ـ وفي ذلك الكفاية في تصحيح النسبة ـ، فان مقارنته بكتب الجاحظ قلماً واسلوباً ونفساً ومطلباً دليل صريح على بطلان نسبته للجاحظ.

ومن حسن حظ العلم والبحث أن يتناول الامام في كتاب التوحيد عدة امور تتعلّق بالحيوان، وان يكون الجاحظ قد ألّف كتاباً في الحيوان ـ هو مطبوع ومتداول ـ. وان نظرة موضوعية يلقيها المدقق على الكتابين في الموضوعات المشتركة بينهما تثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن نسبة كتاب التوحيد للجاحظ أمرٌ مرفوض تماماً، لما نجد من الفروق الكبرى بين الكتابين فيما يتعلق بتلك الموضوعات؛ منهجاً واسلوباً وطريقة عرض ووصف، الأمر الذي ينفي نفياً قاطعاً أن يكونا من انتاج مؤلف واحد.

كذلك نجد في المناظرات والمحاججات المروية عن الامام في حواره مع الملحدين والمنكرين لوجود الله تعالى بعض وجوه الشبه والقرب مما ورد في كتاب المفضل في التوحيد[١٢٤].

ومما ينبغي ذكره في هذا الصدد ان أحد الباحثين المعاصرين قد ذهب الى نسبة المقدمة الواردة في صدر توحيد المفضل ومقدمة المجلس الرابع بل المجلس الرابع بكامله الى أحد الدعاة الاسماعيليين الذي شاء أن يقحم في الكتاب بعض مصطلحاتهم واستعمالاتهم الخاصة ليطبع ذلك بطابعهم المذهبي المميّز[١٢٥].

٤ ـ كتاب الاهليلجة :

وهو كتاب يتضمن رسالة من الامام الصادق ـ ع ـ كتبها الى المفضل بن عمر الجعفي جواباً على ما طلب منه تبيينه رداً على الملحدين المنكرين للربوبية واحتجاجاً عليهم بما لا سبيل لهم الى ردّه، وقد أورد الامام فيها مناظرته مع الطبيب الهندي واستدلاله على المطلوب من طريق البحث في الاهليلجة التي هي واحدة الاهليلج كما ذكر اللغويون، وهو ثمر معروف يستعمل في الأدوية؛ منه أصفر؛ ومنه أسود وهو البالغ النضيج[١٢٦].

---

(١٢٤) يراجع في تلك المناظرات كتاب الاحتجاج: ١٨٠ ـ ١٨٣.

(١٢٥) توحيد المفضل: ٣٠ ـ ٣٢، ط النجف ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م، بتقديم الاستاذ كاظم المظفر.

(١٢٦) معجم النبات والزراعة: ١/ ١٧٠.

وكان السيد رضي الدين علي آل طاووس قد ذكره في عدد من كتبه وسماه «الاهليلجة وهو كتاب مناظرة مولانا الصادق (ع) مع الهندي في معرفة الله جل جلاله»[١٢٧]، وأورده بنصّه الشيخ محمد باقر المجلسي في موسوعته وعنونه بقوله: «الخبر المروي عن المفضل بن عمر في التوحيد؛ المشتهر بالاهليلجة»[١٢٨]، وذكره من باحثي هذا القرن كلٌ من بروكلمان والشيخ الطهراني[١٢٩]، وقد طبع مع توحيد المفضل أكثر من مرة.

وجاء في كلام أحد الأفاضل تعليقاً على هذا الكتاب: «ان أصل الخبر مما صدر عنه ـ عليه السلام ـ، لكنه لم يخل عن تصرف المتصرفين فزادوا ونقصوا بما أخرجه عن استقامته الأصلية، ويشهد على ذلك النسخ المختلفة العجيبة التي سينقلها المصنف [أي مصنف البحار]، فإن النسخ يمكن أن تختلف بالكلمة والكلمتين والجملة والجملتين لسهو من الراوي في ضبطه أو من الكاتب في استنساخه، وأما بنحو الورقة والورقتين فمن المستبعد جداً»[١٣٠].

---

(١٢٧) الأمان: ٧٨ وفرج المهموم: ١١ و٤٦ وكشف المحجة: ٩.

(١٢٨) بحار الأنوار: ٣/ ١٥٢ ـ ١٩٨. ويظهر من تعليقات صاحب البحار على النص وجود نسخ لديه من هذا الكتاب، وذكر انه استدرك على هذه النسخ تلك الزيادات الواردة في نسخة رضي الدين آل طاووس.

(١٢٩) تاريخ الأدب العربي: ١/ ٢٦٠ والذريعة: ٢/ ٤٨٤.

(١٣٠) بحار الأنوار: ٣/ هامش ص٥٦.

كتب غير صحيحة النسبة :

أ ـ رسائل جعفر الصادق:

هكذا سمّاها حاجي خليفة[131]، وسُمّيت في بعض المعجمات المعاصرة: رسائل مجموعة في كتاب[132]، وأضاف الزركلي الى ذلك قائلاً: «يقال ان جابر بن حيان قام بجمعها»[133].

والصحيح انها رسائل جابر بن حيان في الكيمياء، وقد أوقع هؤلاء الباحثين وغيرهم في هذا الوهم قول ابن خلكان في اثناء ترجمة الامام الصادق: كان «تلميذه أبو موسى جابر بن حيان الصوفي الطرسوسي قد ألّف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق، وهي خمسمائة رسالة»[134].

ب ـ كتاب في الكيمياء:

ذكره بروكلمان ولم يصحح نسبته للامام[135]، والصواب انه لجابر بن حيان.

(١٣١) كشف الظنون: ١/ ٩٠١.
(١٣٢) معجم المؤلفين: ٣/ ١٤٥.
(١٣٣) الأعلام: ٢/ ١٢١.
(١٣٤) وفيات الأعيان: ١/ ٢٩١ ومرآة الجنان: ١/ ٣٠٤ والأئمة الاثنا عشر: ٨٥ وشذرات الذهب: ١/ ٢٢٠ وينابيع المودة: ٣٨١.
(١٣٥) تاريخ الأدب العربي: ١/ ٢٦٠.

ج ـ كتب في الزجر والفال واختلاج الأعضاء وتقسيم الرؤيا[136].

ولم يصح منها شيء، ونفى الحافظ ابن كثير الدمشقي أن يكون كتاب اختلاج الأعضاء له[137]، والصواب في نسبته أنه لأبي معشر جعفر بن محمد الفلكي.

د ـ أحاديث ونُسَخ :

روى الحافظ ابن حجر عن ابن عدي قوله: «لجعفر أحاديث ونُسَخ»[138]، ولم يتضح مراده من كلمة النسخ، ولعلها اشارة الى ما تقدم ذكره من الكتب كالجفر والجامعة وأمالي التوحيد.

(١٣٦) وفيات الأعيان: ١/ ٢٩١ وتاريخ أبي الفدا: ٢/ ٥ وحياة الحيوان: ٢/ ١٠٣ والأئمة الاثنا عشر: ٨٥ وهدية العارفين: ١/ ٢٥١.
(١٣٧) البداية والنهاية: ١٠/ ١٠٥.
(١٣٨) تهذيب التهذيب: ٢/ ١٠٤.

وبعد:

فهذه ومضة من ومضات توهج الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) وإشراقه، وغُرفة من غمير منهله العذب الفرات السائغ للشاربين، عرضتها فيما تقدم بايجاز واختصار، لتكون بمثابة قبسة العجلان ونهلة الظمآن، راجياً أن يجد فيها القارىء الموضوعي بعض ما يطفىء غليله ويحقق رغبته في الوقوف على أبرز معالم سيرة هذا الامام العظيم؛ سليل الأئمة الميامين السابقين وأبي الأئمة اللاحقين المتجبين، الذين تجلى فيهم جميعاً نورُ الحق وهَدْيُ الاسلام ونهج الكتاب وفصل الخطاب، فكانوا ـ كما أراد الله تعالى لهم ـ أئمة الهدى، وأعلام التقى، وكهف الورى، والمثل الأعلى، وحجج الله على أهل الدنيا، وعباده المكرمين الذين لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

وكانت المقارنة التاريخية الدقيقة بين ما تحدّثت عنه النصوص النبوية وأقرّ به العلماء والفقهاء ورجال المذاهب وجمهور المفسّرين والمحدّثين وأجيال الباحثين والمصنفين؛ من علم الامام الصادق وفقهه؛ ودينه وورعه؛ وسائر صفاته وخصاله؛ ومزاياه وخلاله، وما ورد في وصف غيره من مدّعي الخلافة الشرعية والسلطة الدينية؛ ممن لم يأبهوا بذلك الشرع الذي ادعوه؛ ولم يلتزموا

بمنطوق الدين الذي زعموا التمسك به، الا بمقدار ما يجلب لهم المنافع ويدفع الأخطار ويضمن الكراسي والعروش؛ بعيداً عن أي امتثال مفترض لأوامر الله تعالى على صعيد الواقع العملي؛ وأي تطبيق حقيقي لأحكامه ونواهيه على مستوى السلوك اليومي المعتاد. وقد انتهت بنا تلك المقارنة الوافية الى التيقن التام بجمع هذا الانسان الأوحد جعفر بن محمد لما اتفق عليه المسلمون من صفات الامامة وشروط النيابة عن الله ورسوله (ص)، ليكون ـ من ثَمّ بلا منازع ـ إمام زمانه الشرعي الواجب الطاعة، وصاحب الولاية الدينية العامة في عصره.

ثم كان أهم ما يعنيني في هذا البحث بعد استعراض الخطوط العريضة لحياة الامام الشخصية وشؤونه الذاتية؛ وعلاقاته السياسية بالحاكمين والمتسلطين من امويين وعباسيين وخصوصاً ما يتعلق منها بأبي جعفر المنصور ـ وهو المعروف بالغلظة والقسوة والجبروت ـ؛ وبيان ذلك الشدّ والجذب بينهما خلال مدة معاصرة الامام لحكم أبي جعفر، والتي انتهت بوفاة الصادق واتهام الخليفة بالأمر بدسّ السم اليه وقتله.

أقول: كان أهم ما يعنيني بعد ذلك العرض التاريخي أن ابيّنَ بشيء من الاستيعاب المضغوط أبرز ملامح «تراث الامامة» الفكري الممتد في كل الجوانب والاتجاهات، تفسيراً وفقهاً؛ وكلاماً وفلسفة؛ وادارة وسياسة؛ وأدباً وشعراً؛ وطباً وكيمياء، وغير ذلك مما سلف ذكره من مبادىء العلوم التطبيقية وشؤون

المعارف الكونية، وقد حاولتُ بمقدار ما يتسع له المجال تأشير جميع ذلك باختصار وتلخيص، مستشهداً عليه ببعض المرويّ عن الامام نفسه من نصوص، وبكلمات المؤرخين والباحثين من قدامى ومحدثين. ثم أنهيتُ هذا الفصل بذكر ما نُسب الى الامام من كتب ومؤلفات، منبهاً على ما صحَّ منها وما لم يصح في نظري القاصر، وشارحاً بعض الألفاظ التي قد تسبِّب اللبس وتضبِّب الرؤية كـ«الجفر» و«الجامعة» و«مصحف فاطمة ـ ع ـ».

والله المسؤول أن يمدَّ بالتسديد للصواب بمنه؛ ويتفضل بالأمن من الزلل والخطل بلطفه، وأن يتقبل هذا العمل بقبوله الحسن الجميل؛ ويجعل فيه ما ينفع طلاب الحقيقة الراغبين في معرفة سير أئمة الحق وتاريخهم الزكي الوضاء. والحمد ـ أولاً وأخيراً ـ لولي التوفيق على دوام عطائه وآلائه؛ وفيض مواهبه ونعمائه.

فهرس المصادر والمراجع

الأئمة الاثنا عشر/ لابن طولون الدمشقي	بيروت ١٣٧٧هـ
الاحتجاج/ للطبرسي	النجف ١٣٥٠هـ
الأحكام السلطانية/ للماوردي ـ المطبعة المحمودية	القاهرة (بلا تاريخ)
الارشاد/ للمفيد محمد بن محمد بن النعمان	طهران ١٣٠٨هـ
اسعاف الراغبين/ للشيخ محمد الصبان ـ هامش نور الأبصار	القاهرة ١٣٥٦هـ
الأعلام/ للزركلي	بيروت ١٣٨٩هـ
اكتوبر/ مجلة/ العدد ٣٣٤	القاهرة ١٩٨٣م
الامام الصادق/ لمحمد أبو زهرة ـ مطبعة خيمر ـ	القاهرة (بلاتاريخ)
الامام الصادق ملهم الكيمياء/ للدكتور محمد يحيى الهاشمي ط٢	دمشق ١٩٥٩م
الأمان/ لعلي رضي الدين آل طاووس	النجف ١٣٧٠هـ
الأمثال/ لأبي عبيد القاسم بن سلام	بيروت ١٤٠٠هـ
انباه الرواة/ للقفطي	القاهرة ١٣٦٩هـ
بحار الأنوار/ لمحمد باقر المجلسي ج٣	طهران ١٣٧٦هـ
ج٤٧	طهران ١٣٨٦هـ

البحر المحيط / لابن حيان الأندلسي — القاهرة ١٣٢٨هـ
البداية والنهاية / لابن كثير الدمشقي — القاهرة ١٣٥١هـ
تاريخ / أبي الفدا — القاهرة ١٣٢٥هـ
تاريخ / خليفة بن خياط — دمشق ١٣٨٧هـ
تاريخ / الطبري — القاهرة ١٩٦٣م
تاريخ / اليعقوبي — النجف ١٣٥٨هـ
تاريخ الأدب العربي / لبروكلمان ـ
الترجمة العربية ج١ — القاهرة ١٩٥٩م
تاريخ التمدن الاسلامي / لجرجي زيدان — القاهرة ١٩٣١م
تاريخ الخلفاء / للسيوطي — القاهرة ١٣٥١هـ
تاريخ الخميس / للديار بكري — القاهرة ١٢٨٣هـ
التبيين / لموفق الدين المقدسي — الموصل ١٤٠٢هـ
تحف العقول / لابن شعبة الحراني — النجف ١٣٨٣هـ
تذكرة الحفاظ / للذهبي — الهند ١٣٧٥هـ
تذكرة الخواص / لسبط ابن الجوزي — النجف ١٣٦٩هـ
تفسير / القرطبي — القاهرة ١٣٨٧هـ
التهذيب / للطوسي محمد بن الحسن — طهران ١٣٩٠هـ
تهذيب التهذيب / لابن حجر العسقلاني — الهند ١٣٢٦هـ
التوحيد / للامام الصادق ـ ع ـ (نشرة المدرس بالحرم المكي) — بيروت ١٣٧٦هـ

جابر بن حيان / للدكتور زكي نجيب محمود ـ سلسلة أعلام العرب ـ — القاهرة ١٩٦١م
جابر بن حيان وخلفاؤه / للدكتور محمد محمد فياض ـ سلسلة اقرأ ـ — القاهرة ١٩٥٠م
جواهر الكلام / للشيخ محمد حسن النجفي ـ ج ٢٠ ـ — النجف ١٣٨٩هـ
حياة الحيوان / للدميري — القاهرة ١٣٥٦هـ
حلية الأولياء / لأبي نعيم — بيروت ١٣٨٧هـ
دائرة المعارف الاسلامية / لجمهرة من المستشرقين ـ الترجمة العربية ـ — طهران (طبعة مصورة)
الذريعة / للشيخ آقابزرك الطهراني ج٤ — طهران ١٣٦٠هـ
ج٥ — طهران ١٣٦١هـ
ذيل المذيل / للطبري — القاهرة ١٩٧٧م
رجال / الطوسي — النجف ١٣٨١هـ
رجال / النجاشي — الهند ١٣١٧هـ
زهر الآداب / للحصري القيرواني — القاهرة ١٩٢٥م
زهرة المقول / لابن شدقم — النجف ١٣٨٠هـ
سر السلسلة العلوية / لأبي نصر البخاري — النجف ١٣٨٢هـ
سنن / أبي داوود — القاهرة ١٣٧١هـ
سنن / الترمذي — القاهرة ١٣٥٦هـ

سنن / النسائي ـ شرح السيوطي ـ القاهرة ١٣٤٨هـ
سير أعلام النبلاء / للذهبي بيروت ١٤٠٦هـ
شخصيات اسلامية / لعبد الرحمن الشرقاوي ـ دار اقرأ ـ بيروت (بلاتاريخ)
شذرات الذهب / لابن العماد الحنبلي القاهرة ١٣٥٠هـ
شرح نهج البلاغة / لابن أبي الحديد القاهرة ١٣٧٨هـ
صحيح / البخاري ـ طبعة محمد علي صبيح القاهرة (بلاتاريخ)
صحيح / مسلم ـ طبعة محمد علي صبيح القاهرة (بلاتاريخ)
صفة الصفوة / لابن الجوزي الهند ١٣٨٩هـ
الصواعق المحرقة / لابن حجر الهيتمي القاهرة ١٣١٢هـ
طبقات / ابن سعد ليدن ١٣٢٢هـ
طبقات / خليفة بن خياط دمشق ١٩٦٦م
العبر / للذهبي ـ ج١ ـ بيروت ١٤٠٥هـ
العقد الفريد / لابن عبدربه الأندلسي القاهرة ١٣٧٥هـ
عقيدة الشيعة / لدونلدسن ـ الترجمة العربية ـ القاهرة ١٣٦٥هـ
عمدة الزائر / للسيد حيدر الحسني بيروت ١٣٩٩هـ
عمدة الطالب / للداوودي النسابة النجف ١٣٥٨هـ
الفتوح / لابن أعثم الكوفي الهند ١٣٨٨هـ
الفخري / لابن الطقطقي القاهرة ١٩٣٨م
فرج المهموم / لعلي رضي الدين آل طاووس النجف ١٣٦٨هـ

الفصل / لابن حزم بيروت ١٣٩٥هـ
الفصول المهمة / لابن الصباغ المالكي النجف ١٣٧٠هـ
الفهرست / لابن النديم طهران ١٣٩١هـ
الكافي / لمحمد بن يعقوب الكليني طهران ١٣٧٥هـ
الكامل / لابن الأثير ـ ج٥ ـ القاهرة ١٣٥٧هـ
كشاف اصطلاحات الفنون / للفاروقي التهانوي القاهرة ١٣٨٢هـ
كشف الظنون / لحاجي خليفة تركيا ١٣٦٠هـ
كشف المحجة / لعلي رضي الدين آل طاووس النجف ١٣٧٠هـ
كفاية الطالب / للكنجي الشافعي النجف ١٣٥٦هـ
لزوم مالايلزم / لأبي العلاء المعري القاهرة ١٣٣٣هـ
لسان الميزان / لابن حجر الهند ١٣٢٩هـ
مآثر الانافة / للقلقشندي الكويت ١٩٦٤م
مجمع الأمثال / للميداني القاهرة ١٣٥٢هـ
مجمع الرجال / للقهبائي ايران ١٣٨٤هـ
مجمع الزوائد / لابن حجر بيروت ١٩٦٧م
المحتسب / لابن جني القاهرة ١٣٨٦هـ
مختصر تاريخ العرب / للسيد أمير علي الهندي ـ الترجمة العربية القاهرة ١٩٣٨م
مختصر في شواذ القرآن من كتاب

البديع / لابن خالويه — القاهرة ١٩٣٤م
مرآة الجنان / لليافعي — الهند ١٣٣٧هـ
مروج الذهب / للمسعودي — القاهرة ١٣٥٧هـ
المستقصى / للزمخشري — الهند ١٣٨١هـ
مسند / أحمد بن حنبل — بيروت ١٣٨٩هـ
مطالب السؤول / لمحمد بن طلحة الشافعي — النجف ١٣٧١هـ
المعارف / لابن قتيبة — القاهرة ١٩٦٠م
معاني القرآن / للفراء - ج٣ - — القاهرة ١٩٧٢م
المعجم الكبير / للطبراني - ج٢ - — بغداد ١٣٩٨هـ
معجم الشعراء / للمرزباني — القاهرة ١٣٥٤هـ
معجم المؤلفين / لعمر رضا كحالة — دمشق ١٣٧٦هـ
مقاتل الطالبيين / لأبي الفرج الأصبهاني — القاهرة ١٣٦٨هـ
المقدمة / لابن خلدون — القاهرة ١٣٤٨هـ
الملل والنحل / للشهرستاني - هامش الفصل - — بيروت ١٣٩٥هـ
المناقب / لابن شهراشوب السروي — ايران ١٣١٧هـ
منهاج السنة / لابن تيمية — بولاق ١٣٢١هـ
نثر الدر / للآبي - ج١ - — القاهرة ١٩٨٠م
النجوم الزاهرة / لابن تغرى بردى — القاهرة (طبعة مصورة)
نسب قريش / للمصعب الزبيري — القاهرة ١٩٥٣م
النصائح الكافية / لمحمد بن عقيل الحضرمي — بغداد ١٣٦٧هـ

نهج البلاغة / تعليق الشيخ محمد عبده - — طبعة البابي الحلبي
نور الأبصار / للشبلنجي — القاهرة (بلاتاريخ)
هدية العارفين / لاسماعيل باشا — القاهرة ١٣٥٦هـ
الوزراء والكتاب / للجهشياري — استانبول ١٩٥١م
وفيات الأعيان / لابن خلكان — القاهرة ١٣٥٧هـ
ينابيع المودة / للقندوزي الحنفي — القاهرة ١٣٦٧هـ

فهرس مطالب الكتاب

الصفحة

المقدمة ..... ٥ ـ ٩
الامام الصادق بين ولادته وإمامته ..... ١١ ـ ٢٣
ولادته: يومها وشهرها وسنتها، أمّه، كنيته، القابه، ملامحه وشمائله، زوجاته وأولاده، بعض ماعاصر من أحداث عصره أيام شبابه.
الامام الصادق بين إمامته وشهادته ..... ٢٥ ـ ٨٩
نصّ الامام الباقر (ع) بالامامة على ابنه الصادق، والنصوص النبوية الدالة على إمامته، اجتماع شروط الامامة وجميع مؤهلاتها فيه، علمه وفقهه، زهده وعبادته، كرمه ومكارم أخلاقه. الخلفاء المدّعون للامامة في عصره وما قيل فيهم: هشام ابن عبدالملك، الوليد بن يزيد، يزيد بن الوليد، ابراهيم بن الوليد، مروان الحمار، أبو العباس السفاح، أبو جعفر المنصور، انحصار الامامة بالامام الصادق بعد المقارنة والتمحيص:

موقف الامام من شؤون عصره أيام إمامته، مجمل علاقته بخلفاء ذلك العصر من امويين وعباسيين، بعض ماروِيَ عنه أيام ارهاصات الثورة ضد الامويين، بعض ماقال في اجتماعات الهاشميين، موقفه من الثورات الاولى ضد العباسيين، استدعاء السلطة الامامَ الى العراق عدة مرات، حقد أبي جعفر المنصور عليه، استبداد المنصور وطغيانه، بطشه بالهاشميين، وفاة الامام ورواية كونها بالسم، تاريخ الوفاة، أوصياؤه، مراثيه.

تراث الامامة ..... ٩١ ـ ١٧٧

ماقاله القدماء والمحدثون فيه على سبيل الاجمال، مصادر علم الامام ومتابعه، بعض طلابه والرواة عنه من المشاهير، عدم رواية البخاري عنه وماقيل في ذلك.

أهم ما في ذلك التراث: الحثُّ على التعلُّم والتعليم والكتابة والتأليف، اهتمامه بالعقل وتسميته «دليل المؤمن»، رفضه الحديث اذا خالف كتاب الله، نهيه عن الأخذ بالبدع وعن الاجتهاد في مقابل النص، أمره شيعته بأن يكونوا المثال الفاضل لأخلاق الاسلام، نهيه إياهم عن الغلو

واعلان براءته من الغلاة.

لمحات من تراثه ـ ع ـ: في التفسير، في القراءة، في الفقه، في اصول الفقه، في الفلسفة والكلام، في إدارة الدولة وشؤون الحكم، في الشعر والأدب، في العلوم الطبيعية والتطبيقية وخصوصاً في الطب والكيمياء، مناقشة المشككين في بعض ذلك.

المؤلفات المنسوبة اليه ـ مايصح منها ومالم يصح ـ: كتاب الجفر، كتاب الجامعة، كتاب التوحيد، كتاب الاهليلجة، كتب اخرى.

الخاتمة ..... ١٧٨ ـ ١٨٠

فهرس المصادر والمراجع ..... ١٨١ ـ ١٨٧

فهرس مطالب الكتاب ..... ١٨٩ ـ ١٩١